المكتبة التاريخية

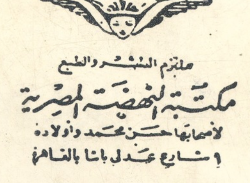
باشراف الدكتور احمد عزت عبد الكريم

٢

الإسلام في اسبانيا

للدكتور لطفي عبد البديع

أستاذ مساعد بكلية الآداب بجامعة عين شمس



ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

الإسلام في إسبانيا

المكتبة التاريخية

بإشراف الدكتور احمد عزت عبد الكريم

٢

الإسلام في اسبانيا

للدكتور لطفي عبد البديع

أستاذ مساعد بكلية الآداب بجامعة عين شمس



فهرس الموضوعات

صفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

صفحة

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الدكتور أحمد عبد الكريم

منذ أيام أصدرت « المكتبة التاريخية » كتابها الأول : « المجمل فى تاريخ الأندلس » للمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ، فأحسن أصدقاؤنا وزملاؤنا استقباله ، وأسبغوا علينا من عبارات التشجيع ما نعجز عن الوفاء له بحق الشكر . واليوم نصدر كتابنا الثانى : « الاسلام فى اسبانيا » من تأليف الدكتور لطفى عبد البديع .

وقد حرصنا على أن يجيء صدور هذا الكتاب فى أعقاب الكتاب الأول ، فالكتابان يعالجان جانبا واحدا ـ وجانبا هاما ـ من جوانب التاريخ الاسلامى : وهو تاريخ الأندلس . فكتاب أستاذنا العبادى عالج الموضوع من ناحيته السياسية وان لم يهمل الناحية الحضارية . وكتاب زميلنا الدكتور لطفى

عبد البديع عالج الموضوع من ناحيته الحضارية وان لم يهمل الناحيــة السياسية . فصدور الكتابين فى وقت متقارب يحقق غايتنا من القاء ضوء قوى على تاريخ الأندلس من نواحيه المختلفة حتى تكون صورة هذا التاريخ أمام القارىء العربى واضحة مجلوة فى كتابين من هذا الحجم وهذا الأسلوب اللذين تصدر بهما « المكتبة التاريخية » .

والدكتــور لطفى عبد البديع خير من يكتب فى موضوع « الاســلام فى اسبانيا » ، فقد جمــع الى جانب ثقافته اللغوية والأدبية بصرا بتاريخ اسبانيا ولغتها وآدابها وحضارتها الاسلامية، وقد توفر على دراستها عدة سنوات فى اسبانيا . والكتاب الذى يسعدنا أن نقدمه اليوم ثمرة من ثمرات هذه الدراسة . وقد جشم له مؤلفه جهدا كبيرا فجاء ــ على صغره ــ طريفا فى بابه جمع بين مباحث فى التاريخ والأدب واللغة والفلسفة فى نسق منظم وأسلوب رصين ومنهج علمى سليم نأى به عن التفصيلات الدقيقة وجعله ميسرا لجمهور القارئين .

والفكرة الأساسية التى أدار حولها الدكتور لطفى بحثه أن « الفتح الاسلامى ــ على حد تعبيره ــ لم يكن مجرد حــادث سياسى فى تاريخ اسبانيا ، وانما كان حدثا حضاريا استهلت به حقبة خلفت فى الحيــاة الاسبانية بشتى مظاهرها آثارا عميقة

لم تنقطع بزوال سلطان الاسلام السياسى بل ظلت ماثلة تتراءى فى كيان اسبانيا وعناصرها المختلفة . والحياة الاسلامية كانت من التغلغل فى اسبانيا بحيث لم يكن من الطبيعى أن تمحى برفع راية سنتياجو على قصر الحمراء ، (١) .

وهكذا مضى الدكتور عبد البديع يتقصى آثار الاسلام فى اسبانيا ، فكتب فصولا ممتعة عن تأثير الاسلام فى الحياة الاسبانية الاجتماعية والدينية وفى التأثير الثقافى للاسلام : فى اللغة والأدب والفن القصصى والشعر والفلسفة والعلوم والفنون . وقد دعم آراءه بالشواهد التاريخية والنصوص .

فنهنىء الدكتور لطفى عبد البديع بهذا الجهد العلمى الذى يسرنا أن نقدمه اليوم ؟ وعلى الله قصد السبيل .

٢١ ديسمبر ١٩٥٨

احمد عزت عبد الكريم

(١) انظر ص ٨٨ من هذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكن الاسلام مجرد موجة عابرة طافت باسبانيا ثم انحسرت عنها ، وانما كان حركة حضارية فعالة خلقت فيها دولة اجتمعت لها أسباب القوة والسلطان فى الأندلس التى ان كانت بمدلولها الجغرافى تتراءى اليوم من خلال حجب التاريخ وكأنها الفردوس المفقود الذى لم يبق منه الا أطياف الذكرى فهى بمدلولها الحضارى كيان حى فى جسم العالم الاسلامى بما أمدته من تراث ثقافى تمثل فى علم علمائها وأدب كتابها وشعر شعرائها وتفكير مفكريها .

ثم هى من ناحيـة أخرى كانت حلقة اتصال بين الشرق الاسـلامى والغرب المسيحى وذلك بحكم وضـعها الثقافى والجغرافى فهى جزء من العالم الاسلامى من جهة وقطعة من العالم الأوربى من جهة أخرى ، وهذا الالتقاء مع العالمين هو الذى أفضى بها الى أن تكون المنار الذى انطلق منه اشعاع الثقافة الاسلامية فى أوربا .

وقد حاولنا في هذه الفصول أن ندل على مظاهر الحضارة الاسلامية في الأندلس فتتبعناها في شتى نواحيها تتبعا موجزا لا اسهاب فيه ، ثم تعقبنا تأثير هذه الحضارة في الشطر الآخر من اسبانيا لنبين أن الاسلام لم يقتصر دوره على الجانب السياسي ، والسياسة ليست كل شيء في حياة الأمم وانما تناول العناصر الحيوية التي يتألف منها كيان الجماعات البشرية والأفراد في اسبانيا فغير فيها وبدل ، وجعل من تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى حركة متصلة من الانفعال بالأثر الاسلامي في شبه الجزيرة الايبرية .

وقد استفاضت الأبحاث في هذا الموضوع منذ عهد قريب وأكثر الكتاب الأوربيون من التعرض له وتناوله ، وظلت العربية بمعزل عن هذه الآفاق لا يكاد القارئ العربي يقف عليها الا من خلال ترجمة مقتضبة أو نقل محرف فبدا لنا أن نعالج في هذا الكتاب طائفة منها دون توسع ليس ها هنا مجاله ــ والله المستعان .

المؤلف

الفصل الأول

الإسلام المناضل

عهد الوليد بن عبد الملك من العهود المذكورة فى تاريخ الفتح الاسلامى ، بلغت فيه الجيوش الاسلامية أطراف العالم المتحضر فى عصره ، فبينما كانت جيوش المسلمين تضرب فى سمرقند والهند سنة ٩٢هـ/٧١١م كانت جيوش طارق بن زياد مولى موسى بن نصير تدق أبواب اسبانيا ، وما لبثت أن انقضت على جيش لذريق آخر ملوك القوط الغربيين فشتتت شمله فى وقعة وادى لكه ، وكانت وقعة حاسمة مضى بعدها طارق وموسى بن نصير يوطئان أكناف شبه الجزيرة ويضمانها الى حظيرة الاسلام.

وفتح الأندلس معجزة من معجزات التاريخ التى التمس لها الخيال الشعبى تفسيرا شعريا فى قصة يليان والى طنجة ، فقد قيل انه كان ينقم على لذريق فعلة فعلها بابنته الناشئة فى داره ، فغضب لذلك وأجاز الى الذريق وأخذ ابنته منه ثم لحق بطارق فكشف للفاتحين أمر القوط ودلهم على عورة فيهم أمكنت طارقا الفرصة فانتهزها لوقته .

وقد تناقل المؤرخون العرب هذه القصة ورددها من بعدهم

المؤرخون الاسبان فى العصور الوسطى ، وامتدت حياتها بعد ذلك فى الشعر والمسرح ؛ ولكنها على كثرة ترديدها وطول حياتها لم تكن لتحجب حقيقة المعجزة ، فهى لم تكن ثمرة للعنصر العسكرى وحده بحيث يجوز أن يقال انه هو الذى حمل العرب على بساطه السحرى الى النصر ، وانما كان العرب وقتئذ يحملون لواء حضارة جديدة تفوقت على حضارة الشعوب المغلوبة ، وكانوا من التماسك النفسى والخلقى بحيث لم يقف دونهم شىء ، فانساب الفتح الاسلامى من شبه الجزيرة كالسيل الدافق فى آسيا وافريقيا ووثب منها الى اسبانيا •

وقد شاء بعض المؤرخين أن يتخذوا من سرعة الفتح العربى لاسبانيا دليلا على ما آل اليه أمر القوط الغربيين فى اسبانيا من ضعف وانحلال ، ولكن الناظر فى مدى هذا الفتح وطبيعته فى غير اسبانيا من البلاد التى افتتحها المسلمون سواء فى ذلك ما كان منها تابعا للامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الفارسية يرى أن القوط لم يكونوا بأدنى من غيرهم فى مستوى المقاومة ، هذا الى فقر اسبانيا اذا قيست بغيرها من البلاد والى استحكام الأزمة التى كانت تعانيها الدولة القوطية غداة الفتح بعد أن دب فيها دبيب الشقاق والنزاع •

وقد كانت اسبانيا فى متناول أيدى المسلمين بعد أن تم لهم

فتح المغرب ، فهما يؤلفان عالما واحدا كان يطلق عليه فى القديم المغرب الاسلامى ، ولا يفصلهما الا خليج الزقاق المعروف الآن بمضيق جبل طارق ، فكان المغرب قاعدة انطلق منها الفاتحون الى الساحل الاسبانى ، وكانت كثرة الجيش الذى تحت امرة طارق من البربر اذ كانوا زهاء عشرة آلاف والعرب ثلثمائة .

وتجلى ارتباط الأندلس بالمغرب فى الحقبة التى تلت الفتح ، فكان يحكمها ولاة من قبل صاحب افريقية تعاقبوا عليها ستة أربعين عاما ، فهو الذى يعينهم ويعزلهم، وربما ثار أهل الأندلس بوال وقدموا عليه واليا آخر ، كما فعلوا بعبد العزيز بن موسى ابن نصير ، فقد قتل فى أشياء نقموها عليه واجتمعوا على أيوب ابن حبيب ، وكان للعصبيات القبلية صداها فى الأندلس كما فى المشرق مما أذكى نار الفتن وحرك النفوس للثورات فى كثير من الأحيان .

ثم سقطت الدولة الأموية وأخذ العباسيون يتتبعون بنى مروان بالتقتيل ، وكان ممن فر منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وهو الملقب بالداخل ، فراح يلتمس لنفسه النجاة فى أقصى الغرب من بلاد الاسلام ، فخرج متخفيا من موضع الى موضع حتى وصل الى افريقية ، فرأى واليها عبد الرحمن بن حبيب يقتل من يصيبه من بنى أمية فهرب عن القيروان وولى وجهه شطر اسبانيا .

ثم أقبل عليه الناس وبويع له بقرطبة وأمسى بعبقريته ملكا عريضا ، فمهد البلاد وقمع الفتن وقضى على العصبيات ولم

يستطع أبو جعفر المنصور أن ينازل منه ، واستقل بالأندلس عن الخلافة العباسية ، وأقام لبني أمية ملكاً ظل نحو قرنين ونصف قرن.

وكان دور الدولة الأموية في الأندلس مزدوجاً يقوم على توطيد الملك للأمويين ، ثم على تنمية استقلال الأندلس السياسي عن المشرق ومنافسته في مظاهر الحياة الثقافية . وقد كان هذا هم الأمراء على سنن الخلفاء ، وأول من فعل ذلك عبد الرحمن الناصر ، ومن مظاهر ذلك الأخذ بمذهب مالك بن أنس امام دار الهجرة دون مذهب أبي حنيفة السائد في العراق ، ثم جرى الأمراء على سنن الخلفاء ، وأول من فعل ذلك عبد الرحمن الأوسط ، فقد أخذ بمظاهر الأبهة والجلالة ، وشيد القصور ، وبنى المساجد الجوامع بالأندلس ، وأدخل في البلاد كثيراً من مظاهر الحياة الحضرية التي سبقت اليها من بغداد ؛ وفي أيامه دخل الأندلس زرياب المغني تلميذ اسحاق الموصلي ببغداد ، فنقل اليها الموسيقى والغناء وفنون الآداب مما لم يكن يعرفه الأندلسيون من قبله ، فكان عصر عبد الرحمن الأوسط عصر وعي ثقافي تجلت آثاره في الأندلس بعد ذلك .

أما توطيد الملك فقد اقتضى اخماد الثورات التي اشتعلت في الأندلس على عهد المنذر وعبدالله اذ أطلت الفتنة برأسها وخرج الثوار في الكور ، فكان عمر بن حفصون وهو أخطرهم في ببشتر ، وسوار بن حمدون بمنت شاقند ، وسعيد بن جودي.

بالغرب ، وابراهيم بن حجاج باشبيلية مما أفضى الى اضطرابات هزت كيان البلاد السياسي وهددته بالخطر .

ولم يكد يطلع القرن الرابع حتى كانت الأندلس جمرة تتقد . تنتظر من يطفيء جذوتها ، وكان الذى اضطلع بذلك عبدالرحمن الناصر وقد استخلف سنة ٣٠٠ هـ ، فأخذ الوضع السياسي في الأندلس يتغير ، وأظل البلاد عهد من الاستقرار ازدهرت فيه الحياة في شتى نواحيها ، وتهيأ لها من عظمة البنيان وازدهار العلم ما لم يتهيأ من قبل ، ونافست قرطبة القيروان ومدن الشرق .

وكان من مظاهر النضج السياسي ما انتهى اليه عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٩ من تسمية نفسه أمير المؤمنين ، فاستهل الخطيب بجامع قرطبة بذكر هذا الاسم يوم الجمعة من تلك السنة ؛ وكان الذى دعا الناصر الى ذلك ما آل اليه أمر الخلافة العباسية من ضعف رأى معه أن يجعل لبلاده كيانها السياسي المستقل عن الخلافة المشرقية بحيث صار وهو فى قرطبة يمثل سلطان الاسلام . فوفدت عليه السفارات من دول أوربا المسيحية تتمس المشورة في الشئون السياسية والحربية والثقافية ، وغدت قرطبة عاصمة الخلافة ومستقر الملك ومنارا تشع منه الحضارة الاسلامية على أوربا .

وكان عصر الحكم المستنصر امتـدادا لعصر أبيه من حيث الرخاء والاستقرار ، وزاد عليه ولعه بالعلم وحبه لاقتناء الكتب حتى زخرت خزائنه بالنفيس منها مما أفاض فى ذكره المؤرخون .

أما العمل العسكرى فقد استأثر به فى هذا العهد من عهود الدولة الأموية المنصور بن أبى عامر الذى استبد بالأمر دون الخليفة هشام ، وكان اسمه رمزا للرعب فى اسبانيا المسيحية : بحيث بلغت الدولة فى أيامه ذروة مجدها السياسى والعسكرى .

ولكنه مجد لم يطل به العهد ، فما ان انقضى عصر المنصور وابنه المظفر حتى اشتعلت الفتنة فى عهد ابنه الثانى شنجول ، ووقع بين العرب والبربر ما أدى الى صدع الوحدة وانهيـار الدولة ، فسقطت الخلافة ، واستبدت ملوك الأندلس ببلادها وسموا ملوك الطوائف ، وصاروا يتباهون بالألقاب يقلدون فيها الخلفاء العباسيين ، واشتد بينهم التنازع والصراع ، لايكاد يعظم سلطان أحدهم حتى ينقض على بلاد الآخر يأخذ من أطرافها كما فعل بنو عبـاد ملوك اشبيلية ، وكانوا أعظم هؤلاء الملوك وأشدهم بأسا .

* * *

وفى هذه الأثناء اشتد ساعد اسبانيا المسيحية ، وحمل الفونس السادس ملك قشتالة لواء حركة الغزو وان كانت شهرته قـد كسفتها شهرة السيد القنبيطور بطل الملاحم القشتالى ، وكان

سقوط طليطلة فى سنة ١٠٨٥ أول نذير بالخطر الداهم على الاسلام مما أحس به ملوك الطوائف وهم يومئذ متفرقون لايقوون على شيء ، قد مزقتهم الفتن ووهنت نفوسهم بما انغمسوا فيه من أسباب الترف والنعيم .

وكانت قد ظهرت فى الجانب الآخر من العدوة امبراطورية فتية أقامها أبناء الصحراء فى المغرب ، فانبعثت جيوشها يقودها يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لتدفع عن الاسلام ما ألم به فى شبه الجزيرة ، وتم لها النصر على جيوش ألفونس ومن معه فى موقعة الزلاقة غير بعيد من بطليوس ، فكان ذلك كالثأر للاسلام من الذى أصابه بسقوط طليطلة قبل ذلك بعام ، ثم لم يلبث ابن تاشفين أن أزال ملوك الطوائف عن عروشهم ، فشرد بعضهم وقتل بعضهم الآخر ، وخلصت له الأندلس فضمها الى امبراطوريته .

وهكذا كان القرن الحادى عشر الميلادى من القرون الفاصلة فى تاريخ اسبانيا بشطريها الاسلامى والمسيحى ، فقد شهد فى أوله اشتداد شوكة المسيحية بظهور ألفونس السادس وهو يحمل لواء حركة الغزو واذلال ملوك الطوائف بسياسة القهر وطلب الجزية منهم بحيث صارت أشبه بالمحميات الى أن أقبلت افريقية فردت للاسلام قوته وثبتت أقدامه .

على أن عهد ملوك الطوائف وان كان من الناحية السياسية مظهرا لتفكك الوحدة التى صنعتها قرطبة الأموية ، فقد كان فى المجال الثقافى من آزهى عصور الاسلام الاسبانى ، اذ أخذ التراث الأندلسى يؤتى أكله فى الشعر والآدب والعلوم العقلية والنقلية والفنون ، وتنافس ملوك الطوائف فى الأخذ بأسباب الحياة الثقافية ، وقد وجدوها من تمام مظاهر السلطان الذى ولعوا به وحرصوا عليه •

وقد كان هـذا الدفع الحضارى للأندلس من القوة بحيث صبغ المرابطين بصبغته ، وغلب على ثانى خلفائهم على بن يوسف ابن تاشفين الذى كان يتخذ من خلفاء قرطبة مثلا آعلى له فى حياته الخاصة والعامة •

ثم زال سلطان المرابطين عن الأندلس بزوال سلطانهم فى المغرب ، وأقبلت على اسبانيا موجة أخرى من افريقية يمثلها الموحدون من أبناء عبد المؤمن بن على ، وقد جاءوا فى وقت تجدد فيه الغزو المسيحى لديار الاسلام على أيدى ألفونس الثامن ملك قشتالة وألفونس الثانى ملك أراغون ، فزحفت جيوش الموحدين لتنقذ الاسلام كما أنقذته جيوش المرابطين من قبل ، بحيث كانت وقعة الأرك فى ١٨ يوليو سـنة ١١٩٥ مثل وقعة الزلاقة ، كلتاهما مدت فى عمر الاسلام ووطدت سلطانه فى شبه الجزيرة •

غير أن هـذا النصر كان آخر نصر للمسلمين ، فلم تـكد تمضى سبعة عشر عاما حتى انهزمت الجيوش الاسلامية في وقعة العقاب التي كانت ايذانا بما أصاب الدولة الاسلامية من وهن سياسى وعسكري لم تفق منه بعد ذلك .

وعصر الموحدين يذكر بالآثار العمرانيه الشاهقه التى تتسم بالجلال و الروعة وقد بقيت منها «الخيرالدا» وكانت منارة المسجد الجامع فى اشبيلية ثم برج الذهب وغيرهما مما يشهد بعظمة الدولة والقائمين بها .

وودعت الأندلس الموحدين لتقع فريسة للغزو الذى توالت ضرباته على المدن والحواضر ، فأخذت تسقط واحدة تلو الأخرى في يد فرناندو الثالث فسقطت قرطبة سنة ١٢٣٦ وأعقبتها اشبيلية سنة ١٢٤٨ ، وانحسر ظل الاسلام عن كثير من دياره بحيث لم يبق عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة التى تحكمها بنو نصر .

وقد استطاعت هذه المملكة أن تبقى نحو قرن من الزمان بفضل دهاء ملوكها وحنكتهم السياسية اذ كانت كالجزيرة وسط الممالك النصرانية تهب عليها العواصف من كل جانب ، ولم يكن لها من القوة والمنعة ما يحميها من الأعداء ، فتوسل ملوكها بسياسة المداراة وكسب الوقت ، ولكن مآلها كان الى الاخفاق ، فلم يكد القرن الخامس عشر يشرف على نهايته حتى كانت

كالثمرة الناضجة فى أيدى المسيحيين ، وفتحت غرناطة أبوابها للملكين الكاثوليكيين فرناندو وازابيل فى الثانى من شهر يناير سنة ١٤٩٢ ، وسقط بسقوطها آخر معقل كان للاسلام فى شبه الجزيرة .

* * *

من هذه العجالة يتبين أن حياة الدولة الاسلامية كانت صراعا مع الدول والممالك المسيحية ، ومن هذا الصراع تألف تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى، فشأن هذه الدولة لم يكن كشأن الدول الاسلامية الأخرى التى استقرت فى الحياة ولم تلق مقاومة وغزوا متصلا من جيرانها ، وانما عاشت والسلاح فى يدها ، والغزو يطرق أبوابها والعدو يتربص بها الدوائر فى كل حين .

وربما كان السبب فى ذلك بعد هذه الدولة عن بلاد المسلمين ، فقد كانت فى الطرف الأقصى من ديار الاسلام تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها دون أن تهب لنجدتها دولة اسلامية آخرى الا ما كان من دول افريقية الشمالية التى كانت تسارع الى نصرة الاسلام كلما تهدد الخطر .

ولقد خشى الخليفة عمر بن عبد العزيز على المسلمين من تلك الغربة ، اذ ذكر المؤرخ ابن القوطية فى كتابه تاريخ افتتاح الأندلس أنه طلب الى السمح بن مالك واليه على الأندلس أن يكتب

اليه بصفة الأندلس وبحرها وأنهارها وهيئة مجازها ، وكان رأيه أن يقفل أهلها منها لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين(١).

فالعامل الجغرافى كان بعيد الأثر فى غربة الاسلام بشبه الجزيرة ؛ غير أن العامل القومى لم يكن بأقل أثرا منه؛ فالمسلمون فى الأندلس كانوا بازاء أمة مقاتلة استيقظ فيها الوعى القومى فى وقت مبكر، وجمهرة المؤرخين الأوربيين يردون بداية الصراع بين شطرى اسبانيا الى عهد بلايو أول ملك من ملوك اشتوريا (٧١٨-٧٣٧) وقد انتصر على جيش علقمة فى موقعة كفدنجا Covadonga وكانت هذه الموقعة فى رأيهم الشرارة الأولى لما سموه حركة الاسترداد Reconquista التى امتدت الى وقت سقوط غرناطة فى سنة ١٤٩٢ م.

فالأسبان فى العصر الوسيط كانوا يهتدون - فى رأى هؤلاء المؤرخين - بمثل أعلى وعته نفوسهم واستقر فى أفئدتهم ، ذلك هو اعادة الوحدة الى اسبانيا باخراج العرب منها ؛ فقتالهم لم يكن وليد الساعة ، أو ضرورة اقتضاها ظرف معين وانما كان متأصلا فى النفس الاسبانية منذ قرون .

ويدلل العالم الاسبانى منندث بدال على ذلك بأن فكرة اسبانيا لم تكن من خلق الرومان بل هى كامنة فى الوعى القومى

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٢٦٠.

مستقرة فيه ، فالايبريون كانوا قد صبغوا مختلف الطوائف من أبناء شبه الجزيرة بالصبغة الايبرية ، وألفوا من ذلك ما يشبه الوحدة الثقافية أو الوحدة القومية الاسبانية ، والدولة الواحدة التى جمع القوط الغربيون فى ظلها هذا الاقليم الثانى من أقاليم امبراطورية روما هى أول تعبير سياسى لفكرة اسبانيا الجديدة .

وقد تغنى سان ايسدرو « باسبانيا الأم » التى تربع على عرشها ملوك القوط ، وترددت هذه الفكرة بعد ذلك فى مدونة أوفيدو Epitome Universal Ovetence وترجع الى سنة ٨٨٣ ، فاسبانيا فيها الوريثة الشرعية لمملكة القوط التى رد اليها كيانها « ملوك أوفيدو » وتعرضت لغزو العرب الى حين ؛ ومدونة ألفونس الثالث التى ترجع الى نفس السنة تعد ملوك اشتوريا خلفاء لملوك طليطلة وتروي على لسان بلايو قوله : «فى كفنا نجاة اسبانيا كلها ، اسبانيا التى كان يملكها القوط» ثم ان المدونات التاريخية التى ترجع الى القرن العاشر قد بشرت بميلاد مملكة بنبلونة باعتبارها شريكة لمملكة ليون فى الاضطلاع برسالة تحرير الكاثوليك من العرب . فهذه الشواهد وغيرها تثبت أن الوسيط الأعلى قد تمخض عن نظرية قومية على هديها كان القتال بين الممالك المسيحية فى الشمال والدولة الاسلامية فى الجنوب الى أن ظهرت مملكة قشتالة التى خلفت اسبانيا خلفاء فاضطلعت بالحرب وخاصة منذ القرن الثانى عشر كما اضطلعت

بتوحيد اسبانيا بعد ذلك فى القرن الخامس عشر (١) .

هذا من ناحية اسبانيا المسيحية ، أما اسبانيا الاسلامية فكانت تصدر عن فكرة الجهاد فى سبيل الاسلام وحماية ذماره .

ولقد فتح العرب اسبانيا وقلوبهم يضيئها الدين الجديد ، ويدفعهم الايمان به الى نشره واعلاء كلمته ، ويحملون معهم تراثا حضاريا لا يبلغ شأوه ما عرفته شبه الجزيرة الايبرية ، فمنذ مطلع القرن الثامن أخذت الحضارة الاسلامية تكسف ما عداها من الحضارات ، ولم يعد البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية بعد أن انتقلت شواطئه الجنوبية والشرقية الى أيدى المسلمين ، ودارت اسبانيا فى فلك الاسلام يبث فيها من حضارته ما أثر فى كيانها تأثيرا قويا تناول شتى نواحى الحياة .

---

(١) انظر La Espana dal cid فى R. Menendez Pidal ج ١ ص ٦٤ — ٦٦ .

الفصل الثانى

العناصر البشرية فى الأندلس

لفظ الأندلس الذى أطلق على الأقاليم التى خضعت لسلطان الاسلام سواء فى جنوب شبه الجزيرة أو فى وسطها أو شرقيها وغربيها لا يقتصر مدلوله على المعنى الجغرافى لديار الاسلام بل يشمل مختلف العناصر التى استظلت بظله .

وقد تنوعت العناصر التى ضمتها اسبانيا الاسلامية بحكم تنوع أصولها البشرية وعقائدها وثقافاتها ، وكان من طبيعة الأشياء أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض سواء بالمصاهرة أو بالعشرة أو بالمجاورة ، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه مما كان له أثره فى طبيعة الحضارة الأندلسية ، بحيث كانت أشبه ببوتقة انصهرت فيها عقليات شتى وثمرات ثقافات متباينة .

فالأندلس ضمت مع العرب الأسبان الذين أسلموا والذين لم يسلموا ثم البربر والصقالبة واليهود ، وكان لكل من هذه العناصر أثره فى تلك الحضارة التى لم تنطفىء جذوتها بانقراض الدولة الاسلامية بل ظلت متقدة فى نفوس صانعيها والمتأثرين بها قرونا عدة (١) .

---

(١) انظر فى هذا الموضوع E. Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xeme siecle. Insititutions et vie sociale. p. 18—39.

العـــرب

ومن أول هذه العناصر التى ألفت نسيج الأندلس العرب الذين استقروا فيها بعد الفتح ، وقد دخل طليعتهم مع موسى ابن نصير ويسمون بالبلديين ، ثم تعاقبت أفواجهم بعد ذلك كالفوج الذى دخل مع بلج بن بشير القشيرى سنة ١٢٥ في الطالعة التى تعرف باسمه ، ويطلق عليهم الشاميون .

وقد أورد المقرى فى نفح(١) الطيب أنساب العرب ومنازلهم نقلا عن ابن غالب صاحب فرحة الأندلس فذكر أنه لما استقرت قدم الاسلام بالأندلس وتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم الى الحلول بها فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنوهاشم من قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد ادريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتثار سلك بنى أمية ، وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس ، وكانوا يعرفون أيضا بالقرشيين ، وأما بنو زهرة فمنهم باشبيلية أعيان متميزون .

---

(١) انظر المقرى : نفح الطيب ج ٢ ض ١٨٤ ــ ١٩٠ ط ليدن

قال ابن غالب : وفى الأندلس من ينسب الى جمح والى بنى عبد الدار وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب ابن فهر وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء وبنو الجد الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى سلطان الأندلس الذى غلبه عليها عبد الرحمن الأموى الداخل ، وجد يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بافريقية ، قال ابن حزم : ولهم فى الأندلس عدد وثروة .

وأما المنتسبون الى عموم كنانة فكثير ، وجلهم فى طليطلة وأعمالها ، واليهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضى أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة .

وأما هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أن منزلهم بجهة أريولة من كورة تدمير ، وأما تميم بن مرة بن أد ابن طابخة بن الياس بن مضر فخلق كثير ، وهؤلاء خندف من العدنانية ، وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون الى العموم ، ومن قيس من ينتسب الى هوازن بن منصور بن عكرمة وهم باشبيلية كثير ، ومنهم من ينتسب الى بكر بن هوازن ولهم منزل بجوفى بلنسية على ثلاثة أميال منها ، وباشبيلية وغيرها منهم كثير ، ومنهم من ينتسب الى سعد بن بكر بن هوازن ومنهم كثير بغرناطة .

ومن ثقيف بالأندلس جماعة واليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن، الثقفى والى الأندلس. وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب الى، أسد بن ربيعة بن نزار واقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفى، مدينة وادى آش ، ومنهم من ينتسب الى محارب بن عمرو ومنهم بنو عطية أعيان غرناطة ، ومنهم من ينتسب الى النمر ابن قاسط كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر بن عبد البر، ومنهم من ينتسب الى تغلب بن وائل كبنى حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب الى بكر بن وائل كالبكريين .

وأما اياد بن نزار فينتسب اليهم بنو زهرة المشهورون باشبيلية وغيرهم .

وكان القحطانية وهم المعروفون باليمانية الأكثر بالأندلس والملك فيهم أرسخ الا ما كان من خلفاء بنى أمية فان القرشية قدمتهم على الفرقتين .

وكثيرا ما كان يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية، الحروب بالأندلس كما كان يقع بالمشرق. وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والأفخاذ الى أن قطع ذلك المنصور ابن أبى عامر ، وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون فى جند القائد الواحد فرق كل من كل قبيل ، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس الا ما جاءت على غير هذه الجهة .

وقد امتزجت دماء الفاتحين العرب بالأسبان عن طريق المصاهرة والتزاوج ، فأكثر الذين جاءوا من هؤلاء لم يكن معهم نساؤهم ، وكان بناؤهم بالأسبانيات شائعا بينهم لا يستثنى من ذلك الأمراء والسوقة ، وممن يذكرون بذلك عبد العزيز ابن موسى بن نصير فقد تزوج امرأة لزريق آخر ملوك القوط ويسمونها أيلة وهى المعروفة عند الأسبان باخلونا Egilona وقد أسلمت وتكنت بأم عاصم وسكن معها اشبيلية (١) .

وأنكح الخليفة هشام سارة القوطية ابنة المند كبير أبناء غيطشة من عيسى بن مزاحم ؛ وكانت قدمت الى الخليفة فى شكاة لها على ميراث أبيها ، فابتنى بها عيسى بالشام ثم قدم بها على الأندلس وولد منها ولداه ابراهيم واسحاق فادركا الشرف المؤثل والرياسة باشبيلية ، ثم توفى عنها فى العام الذى دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجى وعمير بن سعيد اللخمى ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية فأنكحه اياها ، وولدت له حبيب بن عمير جد بنى سيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجرز ، وهؤلاء أشراف ولد عمير باشبيلية اذ كان له أولاد من غيرها ولم يشرفوا شرف هؤلاء (٢) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣٠/١
(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠

المسالمة والعجم

وكان يعاصر جيل العرب من الفاتحين الأسبان الذين دخلوا الاسلام ويسميهم المؤرخون العرب المسالمة ، أما الذين بقوا على دينهم من أهل الذمة فكانوا يعرفون بالعجم، وكان لهم رئيس يلقب بالقومس ، وأول قومس كان بالأندلس هو أرطبناس ولاه القماسة عبد الرحمن الداخل ، وكان من عقلاء الرجال فى أمر دنياه ، وساق ابن القوطية من أخباره مع صقر قريش وغيره جملة صالحة من الأخبار (١) .

وكان أهل الذمة فى أمن على أنفسهم وأموالهم لايتعرض أحد لهم بسوء ، ولا يكرهون فى الدين ، ولا تحرق كنائسهم ؛ والكتاب الذى كتبه عبد العـزيز بن موسى بن نصير لتدمير صاحب أريولة الذى سميت المدينة باسمه دستور يتبين منه وضع أهل الذمة فى الدولة الاسلامية ، وجاء فى الكتاب مايلى:

« بسم الله الرحمن الرحيم ــ كتاب من عبد العزيز بن موسى

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٦ .

ابن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولاينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذى اشترطنا عليه » (١) .

(١) ابن عبد المنعم الحميرى: صفة جزيرة الأندلس ص.٩٢

المولدون

ويلى هذا الجيل المولدون وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين ونشئوا على الاسلام ، كانوا يؤلفون على عهد أمراء بنى أمية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الأندلسيين وأهل البيوتات منهم ؛ وكان فيهم من يدعى نسبا من المشرق يرى فيه تعظيما لشأنه كأبى محمد بن حزم فقد ذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان أنه « كان من غرائبه انتماؤه فى فارس واتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر تولى فيها أبوه الوزير ، المعقل فى زمانه ، الراجح فى ميزانه ، أحمد بن سعيد ابن حزم، لبنى أمية أولياء نعمه ، لا عن صحة ولاية لهم عليه: فقد عهده الناس خامل الأبوة ، مولد الأرومة من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث الاسلام ، لم يتقدم لسلفه نباهة (١) » .

ومن خلفاء الأندلس من كان يجرى فى عروقه الدم الأسبانى من جهة الأمهات والجدات ، وكانت جدة عبد الرحمن الناصر الأميرة أنيجا Iniga ابنة فرتون غرسيس Fortun Garces ملك بنبلونة ، وقد أسر فى أيام الأمير محمد وحمل الى قرطبة وبقى

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١٢/ ٢٥٠ .

فيها اثنين وعشرين عاما ؛ ومن هذا النسب كان الناصر كأكثر ملوك بنى أمية الذين يلقبون فى الملاجم الفرنسية بالملوك الشقر أبيض أزرق العينين .

وكن من شأن كثرة أبناء هذا الجيل من المولدين انتشار اللغة الرومانسية بين الأندلسيين وهى اللاتينية الحديثة ، ويسميها المؤرخون العرب العجمية أو اللطينية ، وقد ساق الخشنى فى كتابه تاريخ القضاة أخبارا عن قضاة أندلسيين كانوا يكلمون الخصوم الذين بين أيديهم بالعجمية ، ومما يذكر عن الناصر لدين الله أنه ضمن أبياتا من الشعر فى هجاء ابن جهور وكان من خواصه ألفاظا رومانسية (١) .

والظاهر أن هذه اللغة كانت من الشيوع بين أهل الأندلس بحيث تعجب ابن حزم من أن يلى بن عمر بن الجفى ، وكانت دارهم الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة ، لا يحسنون الكلام بها وانما يتكلمون بالعربية فقط، قال فى جمهرة الأنساب بعد أن ذكر موضعهم « وهم هنالك الى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط (٢) » .

ومن طريق المولدين تداخلت العربية والرومانسية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات كما سنبين ذلك عند الكلام عليه .

---

(١) انظر قصة هذه الأبيات فى نفح الطيب ٤١٧/٢ ط ليدن .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤١٥ .

وفي أسماء الأندلسيين مايشهد بأصولهم القوطية أو الايبرية بقيت لتدل على امتزاج العناصر ، وفى كتب التراجم كثير من هذه الأسماء والكنى كابن بشكوال ولب والأقشتين وابن فرنه وابن فرتون وبنو قرلمان وبنو غرسيه .

ومن مظاهر هذا التأثير اضافة مقطع يتألف من « ون » فى آخر اللفظ للدلالة على التكبير وهو ليس الا المقطع الأسبانى «UN» كقولهم حفصون بزيادة واو ونون على حفص وغلبون بزيادة واو ونون على غالب وزرقون بزيادة واو ونون على أزرق وعبدون بزيادة واو ونون على عبد وهكذا .

ثم ان بعض المولدين كان يرفع نسبه الى أصل قوطى كالمؤرخ ابن القوطية ينسب الى سارة القوطية ، ورفع بعض الفقهاء نسبهم الى يليان حاكم سبته .

ومن الولاة المولدين بنوقسى حكام الثغر الأعلى فقد ذكر ابن حزم أن جدهم قسيا كان قومس الثغر فى أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام وأسلم على يدى الوليد ابن عبد الملك فكان ينتمى الى ولائه ، ولذلك كان بنو قسى فى أول أمرهم اذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون فى جملة المضرية (١) .

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب: ص ٤٦٧ .

المستعربون

يطلق لفظ المستعربين على نصارى الأسبان الذين عاشروا العرب وتعربوا وأقاموا فى ديار الاسلام، وقد كفلت لهم الدولة الاسلامية حرية العقيدة فأبقت لهم كنائسهم وأديرتهم ولم تتعرض لهم فى ذلك بشىء ، وكان لنصارى قرطبة أكثر من كنيسة يؤدون فيها شعائر دينهم كما كان لهم فى ظاهرها أديرة من أهمها دير أرملاط على طريق طليطلة ، وكانت الأديرة والكنائس مما يروق للشعراء ارتيادها ؟ نقل المقرى فى نفح الطيب عن كتاب مطمح الأنفس وصفا شعريا لاحدى الكنائس التى بات فيها الشاعر أبو عامر بن شهيد : «وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرح لمعه ، والقس قد برز فى عبدة المسيح ، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح (١) » .

وكان السواد الأعظم من المستعربين يقيم فى قرطبة واشبيلية، وأكثرهم فى طليطلة اذ كانت عاصمة القوط القديمة والحاضرة

---

(١) نفح الطيب ١/٣٤٥ ط أوربا .

الدينية لشبه الجزيرة ؛ وكان مطران هذه المدينة عبيد الله بن قاسم ممن رافقوا الملك أردون الرابع حين وفد على الحكم المستنصر يبصرونه ويؤنسونه ويعرفونه آداب الدخول على الخليفة .

وقد درج المستعربون على أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم فى المدن وان كان ذلك لم يمنعهم من مخالطة السكان، وكان لهم رئيس يعرف بالقومس وقاض يعرف بقاضى النصارى أو العجم يفصل فيما يكون بينهم من منازعات بمقتضى القانون القوطى، أما مايكون بين مسلم وذمى من منازعات فالفيصل فيها للشريعة الاسلامية .

ويؤخذ مما استقصاه المؤرخون أن المستعربين غالبا ما يكون للواحد منهم اسمان كالأسقف ربيع بن زيد الذى كان يعرف فى المدونات الاسبانية بريسيموندو Recemundo ، وهو الذى جلب للناصر مع أحمد اليونانى الحوض المنقوش بالذهب الغريب الشكل الغالى القيمة .

والاستعراب يمثل تأثير الثقافة العربية فى غير المسلمين من الأسبان ، وقد بلغ الأمر بهم أن صاروا مولعين بالتراث العربى من أدب وشعر حتى جأر المطران الفارو بشكواه من انتشار الثقافة العربية بين شبيبة النصارى، بحيث صار لا يروقهم الا الشعر والقصص العربى ، ولم يعودوا يقرءون الا كتب المسلمين ، وأفضت بهم الحال الى نسيان لغتهم، قال: ولا تكاد تجد بين أتباع

المسيح واحــدا من ألف يحسن كتابة رسالة الى أخ له ، فى حين أن هناك عددا لا يحصى ممن يتشدقون بالألفاظ العربية ويتذوقون جمال الشعر العربى خيرا من المسلمين » .

والوثيقة الحية التى تصور مدى تغلغل العربية فيهم هى تلك المخطوطة المشــهورة المحفوظة فى المكتبة الأهلية بمدريد ، وتشتمل على ترجمة القانون المقدس الى العربية حررها فى سنة ١٠٤٩ القس فسنسيو Vicencio ، وقد سمى نفسه فيها بنجسيس حيث يقول فى ختام الجزء الثامن منها :

« أتممت وأكملت أنا بنجسيس القس الخاطىء عبد عبيد المسيح هذا الجزء الثامن القانون المقدس يوم الأحد فى الوقت الثامن من ذلك النهار وهو أول أحد من الصيام الأربعينى الذى يتلى فيه خبر المرأة السامرية التى استسقاها سيدنا المسيح الماء فى بئر يعقوب » .

وقد أهدى المترجم كتابه الى أسقف يدعى عبد الملك وشفعه بأبيات يمدحه فيها حيث يقول :

كتاب لعبد المـالك الأســقف الندب
جواد نبيل الرفد فى الزمن الجدب
همـام ذكى الحـدس واحد عصره
عليـم كريم ذى حــلوم وذى لب

يجــــدد فضــل الله فينا بفضـــــله
وعم به كــل الأنام هــدى الســرب

فلا زال في عــز من الله شــامل
متي انهل مزن في قرى الأرض بالكسب

وكما ترجم المستعربون قانون الكنيسة ترجموا أيضا الأناجيل الأربعة الى العربية ، فقد عثر المستشرق الأسباني ادواردو سافدرا في سنة ١٨٨٠ على قطعة منه في محفوظات كاتدرائية ليون ، وقد ترجمه أسقف يدعى ميجيل أو ميقايل بن عبد العزيز ، ترجمة فيما يظهر لأخ له يدعي علي بن عبد العزيز .

ومما ترجموه أيضا مزامير داود عليه السلام ، ترجمها الى العربية نظما حفص القرطبى (١) .

وقد كان دور المستعربين وهم عنصر فعال فى الحياة الأندلسية من العوامل الهامة فى نقل الحضارة العربية الى اسبانيا المسيحية : فالعصور الوسطى الأسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصرى بين المسلمين والنصارى ، والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطرى اسبانيا ، وهم منذ الفتح لم ينقطعوا عن الهجرة الى الأراضى

(١) انظر F.J. Simonet: Historia de los Mozarabes ص ٧١٩ وما يليها .

المسيحية ، وقد كثر ذلك على عهد المرابطين والموحدين ، فهاجر سكان بلنسية منها الى قشتالة فى سنة ١١٠٢ ، وخرجت طائفة كبيرة منهم من غرناطة تبلغ عشرة آلاف مع جيش ألفونس الأول ملك أرغون سنة ١١٢٥ ، وخرجت طائفة أخرى من اشبيلية الى قشتالة سنة ١١٤٦ ؛ وكان من شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الثقافة الاسلامية والعربية بين أهل الشمال من المسيحيين ، فمن طريق المستعربين انتقلت اليهم عادات وتقاليد اسلامية ، وكثر الأخذ عن التراث العربى .

٣٢

البربر

كان البربر من أسبق العناصر البشرية التى دخلت الأندلس، وقد ذكرنا أن جيش طارق بن زياد كان جله منهم، وكان قرب بلادهم من بلاد الأندلس مدعاة لأن تتوالى هجراتهم الى اسبانيا، وكانوا ينزلون فى المناطق الجبلية من جنوب الأندلس وغربيها لشبهها ببلادهم ، وقد ذكر ابن حزم فى كتابه « الجمهرة » بيوتات البربر فى الأندلس وكان منهم الأمراء بالثغر ثم بشنت برية ووادى الحجارة ، وبنو رزين بالسهلة ، وبنو ذى النون وبذة ، وكان لهم ضلع فى الفتن التى أفضت الى سقوط الخلافة القرطبية ، واستأثر جماعة منهم بالأقاليم الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف .

اليهود

وجد يهود اسبانيا فى رحاب الاسلام منجاة لهم من اضطهاد القوط وقهرهم ، ورأوا فى الفتح الاسلامى تحريرا لهم مما أصابهم فى وضعهم الخاص والعام ، فقد فرضت عليهم مجامع طليطلة التى كان من أهمها المجمع الذى رأسه ايسدور الاشبيلى قيودا جديدة تناولت أحوالهم الشخصية ، وحرم عليهم بعض ملوك طليطلة تولى المناصب العامة واتخاذ الرقيق .

ولذلك ظاهر اليهود الفاتحين العرب منذ اللحظة الأولى وكانوا عونا لهم فى حركة الفتح ، ومن القواد من كان يكل اليهم أمر حراسة المدن ، والظاهر أنهم كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من سكان بعض المدن فى القرن الثامن كغرناطة التى كانت تعرف — على ذكر ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه الروض المعطار — باغرناطة اليهود لأن نازليها كانوا يهودا ، وكذلك الشأن فى أليسانه .

وقد عظم شأن الجاليات اليهودية فى عاصمة الخلافة فى القرن العاشر فاشتغلوا بالتجارة ، ونبغ منهم فريق كحسداى بن شفروط (٩١٠ — ٩٧٠) وكان طبيبا ووزيرا لعبد الرحمن الناصر ، واشتهر بترجمته لكتاب ديوسقوريديس فى الحشائش والنباتات الطبية ؛ ونال صموئيل بن نغرله الذي عاش بين سنتى

٩٨٢ و ١٠٥٥ مرتبة الوزارة في بلاط ملك غرناطة ، وقد استصفاه لبراعته في كتابة الرسائل ، وخلفه في منصبه ابنه يوسف ، وكذلك كان شأن الوزير أبي الفضل بن حسداي في مملكة سرقسطة .

وكان منهم بعد ذلك الفلاسفة والعلماء كابراهام بن عزرا التطيلي (١٠٩٣-١١٦٧) وابن جبرول المالقي (١٠٢١-١٠٥٢) ويهودا هاليفي الطليطلي ، ثم موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهود في ذلك العصر .

وقد ترجم اليهود كثيرا من الكتب العربية الى اللغة العبرية التي كان الغربيون أعرف بها فنقلت من ثم الى اللغة اللاتينية .

وليس للعبرانيين حضارة خاصة بهم ، فهم حين نبغوا انما نبغوا في ظل الاسلام وبدفع من حيويته ، بدليل أن اليهود في اسبانيا لم يكن لهم مثل شأن أقرانهم في اسبانيا الاسلامية ، فتراثهم ثمرة من ثمرات الثقافة العربية التي تغذوا بها ونهلوا منها ، ولما توارى هذا النبع من الأندلس نضبت معه العقليات العبرية ولم تظهر الا في ظلال حركات أخرى ، فارتبط «حوار الحب» لابرابانل بحركة النهضة الايطالية في القرن الخامس عشر شأنهم في ذلك شأن سائر الذميين ، اذ أخذهم المرابطون

ولم تقم لليهود قائمة بالأندلس في القرن الحادي عشر والثاني عشر شأنهم في ذلك شأن سائر الذميين ، اذ أخذهم المرابطون

والموحدون بالشدة ، وقد ذكر القفطي أن الموحدين شرطوا لمن جحد ديانته من اليهود والنصارى وأسلم مع أسباب ارتزاقه أن يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن بقي على رأى أهل ملته فاما أن يخرج قبل الأجل الذى أجل له ، واما أن يكون بعد الأجل مستهلك النفس والمال ، ولما استقر هذا الأمر خرج المخفون وبقي من ثقل ظهره وشح بأهله وماله فأظهر الاسلام وأسر الكفر .

وقد لجأ كثير منهم الى اسبانيا المسيحية حتى ازدادت الجاليات اليهودية فيها ، وكانوا كالمستعربين واسطة لنقل مظاهر الحياة الاسلامية اليها ، ومن خلالهم بدا تفوق هذه الحياة وسموها الفكرى والحضارى ، اذ كانوا بحكم دينهم أقرب الى المسيحيين من المسلمين ، فوثق فيهم الملوك ووكلوا اليهم كثيرا من المهام .

الصقالبة

كان الجغرافيون العرب يطلقون هــذه التسمية على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار ، ثم اكتسب اللفظ مدلولا خاصا فى اسبانيا الاسلامية فصار يطلق أولا على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون فى أيدى الجرمان ويباعون للمسلمين فى شبه الجزيرة ، وكان لفظ الصــقلبى ينسحب فى عصر الرحالة ابن حوقل فى القرن العاشر عــلى الرقيق الذين من أصل أجنبى سواء فى ذلك من كانوا من بلاد أوربا أو من اسبانيا ذاتها ، وكانوا ينخرطون فى سلك الجندية أو يتخذون لخدمة الحرم فى القصور ، فقد كانوا يخصونهم ، وكان لتجار اليهود ـ على حد تعبير المستشرق الهولندى دوزى ـ معامل للخصى أهمها معمل فردن فى فرنسا (١) فكانوا بعد خصيهم يجلبون الى الأندلس ويباعون فيها وينشئون تنشئة خاصة فيتعلمون العربية وفنون الفروسية ويتأدبون بآداب المجتمع الأندلسى • وازداد عددهم زيادة كبيرة بحيث بلغوا فى عهــد الناصر لدين الله بقرطبة ١٣٧٥٠ ، وفكت رقاب كثير منهم وسمت منزلتهم فى المجتمع فأثروا وملكوا الأراضى واتخذوا الحشم والعبيد •

---

(1) Dozy, Mus. Esp. I, p.154

ونبغت طائفة منهم فى العلم والأدب فكان منهم الشعراء والكتاب ، وقد خصهم حبيب الصقلبى بكتاب ذكر فيه مآثرهم سماه «كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة» .

وعظم شأنهم فى أيام الناصر فتولوا المناصب الهامة وقيادة الجيوش ، ولم يتردد الناصر فى أن يعهد الى نجدة الصقلبى بقيادة الجيش الذى وجهه الى ملك ليون فى سنة ٣٢٧ .

واستكثر منهم الحكم المستنصر فاشتدت شوكتهم وكان لفائق وجؤذر دور هام فى عهده وفى عهد ابنه هشام .

على أنهم كانوا شؤما على الخلافة القرطبية كما كان البربر، فقد خاضوا غمار الفتن التى اندلعت فى أواخر القرن العاشر ينصرون فريقا على فريق .

ولما توزعت الطوائف فى الأندلس استأثر الصقالبة بشرق الأندلس وأنشأوا فيه الممالك، فكان فى بلنسية الصقلبيان مبارك والمظفر، وفى طرطوشة لبيب، وفى دانية أبو الجيش مجاهد ، وفى المرية خيران وزهير .

والظاهر أن الصقالبة لم يذوبوا فى المجتمع الأندلسى بل كان لهم كيانهم الخاص الذى جعل فريقا منهم يتعلقون بالشعوبية ويدعون لها ، ويمثلهم فى تلك النزعة ابن غرسية برسالته التى كتبها فى الطعن على العرب .

ويرى المستشرق الأسبانى خليان ربيرا أن الصقالبة يمثلون العنصر الأوربى فى المجتمع الآندلسى(١)، ومن طريقهم انتقلت بعض الصــور الشعرية التى شاعت فى الأندلس الى البيئات الآوربية وأثرت فيها .

ومجمل القول أن الأندلس كانت تؤلف مزيجا من العناصر البشرية المتباينة التى ساهمت بعقلياتها المختلفة فى تكوين البيئة الثقافية الاندلسية مما كان له أثره فى النهضة العلمية والأدبية وتطورها .

---

(١) J. Riberà, Dis. y Opus II, pp. 135

الفصل الثالث

العلوم والآداب فى الأندلس

اذا كانت الأندلس قد طمحت الى الاستقلال السياسى عن المشرق منذ بدء تاريخها فانها لم تستطع أن تفلت من الخضوع له في المجال الثقافى ، فكانت على بعدها عنه قطعة منه قبل أن تكون قطعة من القارة الأوربية ، ولم يمنعها بعدها عن قلب العالم الاسلامى من أن يندفق عليها التراث العربى من المشرق فى شتى العصور ويتأصل فيها ثم يؤتى أكله بعد ذلك .

وكانت الرحلة فى طلب العلم ولقاء الشيوخ ، وهى من السنن الحميدة فى العالم الاسلامى ابان تلك العصور، من أقوى الأسباب التى أعانت على خلق البيئة الثقافية ؟ .والناظر فى كتب التاريخ والتراجم يرى أن الأندلسيين كانوا أكثر الناس رحلة الى المشرق يأخذون عن شيوخه وأعلامه ثم يعودون الى بلادهم ، وكان يقابل ذلك من جهة أخرى رحلة المشارقة الى الأندلس ينشرون علمهم بين الأندلسيين .

ونحن نعرض لتاريخ العلوم والآداب فى الأندلس على وجه الاجمال ونبدأ منها بالعلوم الشرعية .

العلوم الشرعية

الفقه :

كان علم الفقه من أول ما اشتغل به الأندلسيون ، اذ كان للفقيه عندهم والقاضى منزلة لاتدانيها منزلة ، وكانوا يذهبون مذهب مالك بن أنس ، قيل ان أول من أدخله الأندلس زياد ابن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون ، وكان القوم قبله يتفقهون على مذهب الأوزاعى ، رحل الى الحج فى جلة من الشيوخ الأندلسيين أيام هشام بن عبد الرحمن والد الحكم، فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته فى الأندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه فيها ؛ وأدخل زياد موطأ مالك مكملا متقنا فأخذه عنه يحيى ابن يحيى الليثى الذى نشر المذهب .

وايثار أمراء بنى أمية فى الأندلس لمذهب مالك مظهر لما طمحوا اليه من استقلال الأندلس عن العراق وفيه مذهب أبى حنيفة ، فكانوا لا يولون للقضاء الا من كان مالكيا : قال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة فانه لما ولى القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل أفريقية ، فكان لا يولى الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ؛ ومذهب مالك عندنا بالأندلس ،

فان يحيى بن يحيى ـ وقد روى الموطأ عن زياد المذكور آنفا (أى زياد بن عبد الرحمن) قبل آن يدرك مالكا ثم أدركه فروى عنه ـ كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يلى قاض فى أقطار الأندلس الا بمشورته واختياره ، ولايشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون أغراضهم به ؛ على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه ، وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم ، وداعيا الى قبول رأيهم لديه ، (١) .

وقد أقبل الأندلسيون على موطأ مالك يشرحونه ويفصلون معانيه ، فكان من ذلك كتاب أبى اسحاق ابراهيم بن مزين فى تفسيره ، وكثرت التواليف بعد ذلك فى المذهب فألف القاضى محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة كتاب المنتخب الذى جمع فيه روايات المذهب وشرح مستغلقها وفرع جوهرها ، ومن الكتب المعتمدة عند المالكية كتاب التهذيب للبراذعى السرقسطى . ذكر ابن سعيد المغربى آنه كان ينطلق عليه فى عصره اسم الكتاب حتى بالاسكندرية .

على أنه كان فى الأندلسيين من كان يذهب مذهب الشافعى ،

---

(١) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣٦٠ .

ومنهم من كن يذهب مذهب الظاهرية ، الذى يذكر فى الأندلس بأبى محمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ وقد استبد بعلم الظاهر فى عصره .

وكان ابن حزم أمة وحده لكثرة ما ألف ولسعة علمه بالعلوم الشرعية والمذاهب والنحل ، وقد كان شافعى المذهب يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريا لايقنع فى الدفاع عن مذهبه بالحجج يبسطها فى لين وهوادة ، وانما كان على حد قول المؤرخ ابن حيان «يصك معارضه صك الجندل» وينشقه متلقعه انشاق الخردل ، فنفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب ، حتى استهدف الى فقهاء وقته فمالوا الى بعضه ورد أقواله ، فأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والأخذ عنه ، وطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم الى أن انتهوا به منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة وبها توفى رحمه الله » . (١)

وكتب ابن حزم تملأ العالم الاسلامى ، فهو من أخصب المؤلفين فى الاسلام ، ككتابه الاحكام فى أصول الأحكام والمحلى والفصل الذى بسط فيه القول فى تاريخ العقائد ، وهو علم لم تعرفه أوربا الا فى القرن التاسع عشر .

---

(١) من معجم الأدباء لياقوت ٢٤٨/١٢ .

ومن نظرائه القاضى أبو الوليد الباجى الفقيه المتكلم توفى سنة ٤٧٤ ، تصدى لابن حزم حين قصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته، وكان ابن حزم يجله ، ومن تواليفه المنتقى فى شرح الموطأ، ذهب فيه مذهب الاجتهاد .

ومن الآراء التى انفرد بها الباجى ما ذهب اليه من أن الرسول الأمى صلى الله عليه وسلم قد كتب، وأخذ فى ذلك بظاهر لفظ حديث الكتابة يوم الحديبية الذى فى البخارى ، ولما شغب عليه الفقهاء صنف رسالة بين فيها أن ذلك غير قادح فى المعجزة .

ولما انقضى عصر هذه الطبقة من المجتهدين آل الأمر بالأندلسيين الى نوع من الجمود كان منشؤه اهتمامهم بالفروع دون الأصول ، وتجلى ذلك أيام المرابطين سواء فى الأندلس أو فى المغرب .

ذكر المؤرخ عبد الواحد المراكشى فى كتاب المعجب أنه « لم يكن يقرب من أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ويحظى عنده الا من علم علم الفروع أى فروع مذهب مالك، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بها كل الاعتناء (١)

---

(١) المعجب ص ٩٦ .

الحديث :

عنى الأندلسيون بالحديث وألفوا فيه الكتب ، ومن مشاهير حفاظهم ابو عبد الرحمن بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ ، رحل الى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنة ورجع الى الأندلس فملأها علماء وله فى الحديث مصنفه الكبير الذى رتبه على أسماء الصحابة رضى الله عنهم . وروى ابن حزم أنه روى فيه عن الف وثلاثمائة صاحب ونيف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام فهو مصنف ومسند . قال ابن حزم : وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله فيه فى الحديث وجودة شيوخه ، فانه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير .

ومن مفاخر الأندلسيين فى الحديث أبو محمد قاسم بن أصبغ ومحمد بن عبد الملك بن أيمن ولهما مصنفان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس فى كثير من المصنفات (١) .

وممن اشتهر فى المائة السابعة أبو الحسن على بن القطان القرطبى ، وله فى تفسير غريب الحديث وفى رجاله مصنفات جمة ، ورزين بن عمار الأندلسى جمع فى كتابه ما تضمنه البخارى ومسلم وغيرهما .

---

(١) جذوة المقتبس ١٦٧ .

٤٥:

القرآن وعلومه :

كان علم القراءات من العلوم التى برز فيها الأندلسيون وفاقوا غيرهم من علماء الأمصار الاسلامية ، فلم يكن أحد مثل أبى عمرو الداني عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٤٤٤ فى عصره اتقانا للقرآن واجادة القراءات ، والقراء عالة على تصانيفه التى بلغت مائة وعشرين مصنفا من أشهرها المقنع والتيسير • ويشبهه فى الشهرة أبو القاسم بن فيره الشاطبى المتوفى بالقاهرة سنة ٤٩٠ ، قرأ بشاطبة القراءات وأتقنها على النفزى ، ثم انتقل الى بلنسية فقرأ بها التيسير من حفظه على ابن هذيل ، وارتحل الى المشرق فاستوطن القاهرة واشتهر اسمه وبعد صيته وقصده الطلبة من كل النواحي ، وتصدر للاقراء بالمدرسة الفاضلية ، وكان نزيل القاضى الفاضل ، وله القصيدتان « حرز الأمانى » و « عقيلة أتراب الفضائل » اللتان فى القراءات والرسم ، والأولى منهما عمدة القراء فى العالم الاسلامى الى وقتنا هذا قل من يشتغل بالقراءات الا ويقدم حفظها ومعرفتها •

الفلسفة والعلوم العقلية

لم يكن للفلسفة والعلوم العقلية بالأندلس فى عهدها الأول سوق نافقة ، فقد كان جل اهتمام أهلها منصرفا الى العلوم الشرعية وعلوم اللغة والأدب ، وانما أخذوا يقبلون عليها حين وفدت عليهم من المشرق المذاهب الكلامية والعقلية ، والأندلس — كما ذكر ابن حزم — لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل فقل لذلك تصرفهم فى هذا الباب .

وقد كان فى الأندلسيين قوم يذهبون الى الاعتزال نظار على أصوله ، ولهم فيه تآليف ، منهم خليل بن اسحاق ويحيى بن السمينة والحاجب موسى بن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد وكان داعية الى الاعتزال .

وأول من عرف بالاشتغال بالفلسفة فى الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة الباطنى من أهل قرطبة (٢٦٩ — ٣١٩) وقد أفاض المستشرق الأسبانى آسين بلاسيوس فى بيان مذهبه الذى انعكست فيه الأفلاطونية مع العناصر الاسلامية .

وتيار الحركة العقلية لم يكن على وتيرة فى الأندلس اذ كان يخضع لمؤثرات خارجة عن تطوره الذاتى ، من أهمها موقت

السلطان ومايتصل بذلك من اعتبارات دينية وسياسية ؟ وللحاكم المستنصر اليد الطولى فى بعث الحياة العقلية بالأندلس فقد عنى فى أيام أبيه الناصر بالعلوم وقرب العلماء واستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من بلاد المشرق عيون التواليف والمصنفات فى العلوم القديمة • وجمع منها قبل توليه الخلافة وبعدها ما كاد يضاهى به ما جمعه الخلفاء العباسيون ، وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، فكثر تحرك الناس فى زمانه الى قراءة كتب الاستفادة منها •

وفى عهد ابنه هشام عمد المنصور بن أبى عامر الى خزائن الكتب فأخرج ما فيها من كتب العلوم القديمة المؤلفة فى علوم المنطق وعلوم النجوم وميزها من كتب العلوم المباحة وأمر باحراقها وافسادها فأحرق بعضها وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب من التغايير (١) •

وقد أفضى ذلك الى خمول حركة الفكر بعد ازدهارها واتهام من قرأ كتبا فى الفلسفة وما أشبهها بالزندقة والخروج على الشريعة فتوارى أكثر المشتغلين بها ، الا أن الحركة لم تمت بما فعله المنصور بل تفرقت فى أقطار الأندلس بتفرق الكتب التى أفلتت من يديه ووجدت فى رحاب ملوك الطوائف من أمثال ابن هود صاحب سرقسطة ما أذكى شعلتها مرة أخرى •

---

(١) انظر طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٢ وما يليها •

ويعتد الفكر الأندلسى بثلاثة من أشهر مفكرى الاسلام وهم ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد .

ابن باجه :

هو أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ من سرقسطة ، كان فى علوم الفلسفة آية وقته ، وبرز فى الطب والموسيقى ، ونقل من كتب الأوائل وغيرها وردد النظر فيها ، فما انتج فيها الناظر قبله سبيل ، ذكره أبو الحسن على بن عبد العزيز بن الامام الغرناطى من تلامذته فقال : وكان فى ثقافة الذهن ولطف الغوص على تلك المعانى الجليلة الشريفة أعجوبة دهره ونادرة الفلك زمانه ، فان هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ماصنف بالمشرق ، ونقل من كتب الأوائل وغيرها ـ نضر الله وجهه ـ وردد النظر فيها فما انتهج فيها الناظر قبله سبيل ، وما تقيد لهم فيها الا ضلالات وتبديل .

ثم قال: وأثبت فى الصناعة الذهنية وفى أجزاء العلم الطبيعى ما يدل على حصول هاتين الصناعتين فى نفسه صورة ينطق عنها ويفصل ويركب فيها فعل المستولى على أمدها ، وله تعاليق فى الهندسة وعلم الهيئة تدل على بروعه فى هذا الفن ، وأما العلم الالهى

فلم يوجد في تعاليقه شيء مخصوص به اختصاصا تاما الا نزعات تستقرأ من قوله في رسالة الوداع واتصال الانسان بالعقل الفعال واشارات مبددة في أثناء أقاويل لكنها في غاية القوة والدلالة على نزوعه في ذلك العلم الشريف الذي هو غاية العلوم ومنتهاها .

ولابن باجة من الكتب شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس ، قول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطوطاليس ، قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس ، قول على بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان لأرسطوطاليس، قول ذكر فيه الشوق الطبيعي وماهيته وابتدأ أن يعطي أسباب البرهان وحقيقته ، كتاب اتصال العقل بالانسان ، فصول تتضمن القول على اتصال العقل بالانسان ، كتاب تدبير المتوحد ، كتاب النفس وغيرها (١) . والفكرة الجوهرية في فلسفة ابن باجة هي ما أشار اليه من اتصال العقل بالانسان وكانت أساسا لوحدة الوجود الصوفية عند ابن طفيل، وأفاض فيها ابن رشد الذي انتقلت عنه الى فلسفة العصور الوسطى .

ابن طفيل :

أما ابن طفيل فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل العنسي

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ١/٦٣، ٦٤ .

من وادى آش ، صحب أبا يعقوب يوسف المنصـور خليفة الموحدين الذى كان ولوعا بأنواع الفلسفة حتى اجتمع له منها قريب مما اجتمع للحاكم المستنصر وقرأ على جماعة منهم ابن باجة وغيره ، وله تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والالهيات وقد بقى من رسائله رسالة حى بن يقظان التى قصد من ورائها الى اظهار ما بين الحكمة والشريعة من اتفاق .

والرسالة عبارة عن قصة مسرحها جزيرة مهجورة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء ، تولد من بطن أرضها طفل دون أن يكون له أم أو أب ؛ وفى قول آخر أن تيار البحر حمله الى هذه الجزيرة فى تابوت أحكمت زمه أمه بعد أن أروته من الرضاع . وكانت أميرة مضطهدة فى جزيرة مجاورة فاستودعت ابنها الأمواج حتى تنجيه من الموت ، وهذا الطفل هو حى بن يقظان ، فتبنته غزالة وأرضعته وصارت له كأمه ، ونما حى وأخذ يلاحظ ويتأمل ، وكان الله قد وهبه ذكاء وقادا فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه ، بل استطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير الى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها ، وقد وصل الى ذلك بطريقة الفلاسفة ، وأدت به هذه الطريقة الى أن يحاول عن طريق الاشراق الفلسفى الوصول الى الاتحاد الوثيق بالله ، وهذا الاتحاد هو العلم الغزير والسعادة العليا المتصلة الخالدة فى وقت واحد ، وفى سبيل ذلك دخل مغارة وصام أربعين يوما

متوالية مجتهـدا فى أن يفصل عقله عن العالم الخارجى وعن جسده بواسطة التأمل المطلق فى الله ليصل الى الاتصال به حتى أدرك ما أراد ؛ ولما بلغ ذلك المبلغ لقى رجلا تقيا يسمى «أبسال» أقبل من جزيرة مجاورة الى هذه الجزيرة يحسبها خلاء من الناس ، وقام أبسال بتعليم الكلام لصاحبه المنفرد بنفسه والذى لقيه دون أن يتوقع ذلك ، ولم يلبث أن وجد فى الطريق الفلسفى الذى ابتكره حى لنفسه تعليلا علويا للدين الذى كان يعتقـده وتفسيرا كذلك لكل الأديان المنزلة ، ثم أخذ أبسال صاحبه الى الجزيرة وكان يحكمها ملك تقى يسمى سلامان ، وطلب اليه أن يكشف لأهل الجزيرة عن الحقائق العليا التى وصل اليها فلم يوفق ، ووجدا نفسيهما مضطرين آخر الأمر الى أن يعترفا بأن الحقيقة الخالصة لم تخلق للعوام ، اذ أنهم مكبلون بأغلال الخواس ، وعرفا أن الانسان اذا أراد أن يصل الى التأثير فى أفهامهم الغليظة ويؤثر فى ارادتهم المستعصية فلا مفر له من أن يصوغ آراءه فى قوالب الأديان المنزلة ، وكانت نتيجة هذا أن قرروا اعتزال هؤلاء الناس المساكين الى الأبد ونصحهم بالاستمساك بأديان آبائهم ، وعاد حى وصاحبه الى الجزيرة المهجورة لينعما بهذه الحياة الرفيعة الالهية الخالصة التى لا يدركها الا القلائل من الناس .

والأساس الفلسفي لهذه القصة هو الطريق الذى كان عليه فلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة ؛ وقد صور ابن طفيل الانسان الذى هو رمز العقل فى صورة حي بن يقظان، ورمى من ورائها الى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة .(١) .

ابن رشد :

وأما ابن رشد فهو أشهر فلاسفة الاسلام وأعظم شراح فلسفة أرسطو ، وبشروحه اهتدى الأوربيون فى فلسفتهم ابان العصور الوسطى ، وبلغ اسمه من الشهرة عندهم مبلغ أرسطاليس . مولده ومنشؤه بقرطبة ، اشتغل بالتعاليم وبالطب على أبى جعفر بن هارون ولازمه مدة وأخذ عنه كثيرا من العلوم الحكمية ، وكان قد قضى مدة فى اشبيلية قبل قرطبة ، وكان مكينا عند المنصور خليفة الموحدين وجيها فى دولته ، وكذلك أيضا كان ولده الناصر يحترمه كثيرا ، وتقلب الزمان بابن رشد فنقم عليه المنصور وأمر بنفيه الى اليسانة قرب قرطبة ، ثم صفح عنه ، وقد بين ابن أبى أصيبعة السبب فى نكبة ابن رشد، فروى عن القاضي أبى مروان الباجى أن المنصور « لما كان بقرطبة وهو

---

(١) انظر حي بن يقظان تحقيق احمد أمين ص ١ وما يليها .

متوجه الى غزو الفونس ، وذلك فى عام أحد وتسعين وخمسمائة استدعى أبا الوليد بن رشد ، فلما حضر عنده احترمه احتراما كثيرا وقربه اليه حتى تعدى به الموضع الذى كان يجلس فيه أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص الهنتانى صاحب عبد المؤمن وهو الثالث أو الرابع من العشرة ، وكان هذا أبو محمد عبد الواحد قد صاهره المنصور وزوجه بابنته لعظم منزلته عنده ، ورزق عبد الواحد منها ابنا اسمه على وهو الآن صاحب أفريقية ، فلما قرب المنصور ابن رشد وأجلسه الى جانبه حادثه ثم خرج من عنده وجماعة الطلبة وكثير من أصحابه ينتظرونه فهنأوه بمنزلته عند المنصور واقباله عليه ، فقال : والله ان هذا ليس مما يستوجب الهناء به ، فان أمير المؤمنين قد قربنى دفعة الى أكثر مما كنت أؤمله فيه أو يصل رجائى اليه ، وكان جماعة من أعدائه قد شنعوا بأن أمير المؤمنين قد أمر بقتله ، فلما خرج سالما أمر بعض خدمه أن يمضى الى بيته ، ويقول لهم أن يصنعوا له قطا وفراخ حمام مسلوقة الى متى يأتى اليهم ، وانما كان غرضه بذلك تطييب قلوبهم بما فيه » .

ثم زاد على ذلك أنه مما كان فى قلب المنصور من ابن رشد أنه كان متى حضر مجلس المنصور وتكلم معه أو بحث عنده فى شىء من العلم يخاطب المنصور بأن يقول تسمع يا أخى ، وأيضا فان ابن رشد قد صنف كتابا فى الحيوان وذكر فيه أنواع الحيوان

ونعت كل واحد منها ، فلما ذكر الزرافة وصفها ثم قال : « وقد رأيت الزرافة عند ملك البربر يعني المنصور ، فلما بلغ ذلك المنصور صعب عليه ، وكان أحد الأسباب الموجبة في أنه نقم على ابن رشد وأبعده ، ويقال انه مما اعتذر به ابن رشد أنه قال انما قلت ملك البرين ، وانما تصحفت على القارئين فقال ملك البربر (١) .

وكانت وفاة ابن رشد في مراكش سنة ٥٩٥ ؛ وقد تعددت مناحي التأليف في كتب ابن رشد فلخص في بعضها كتب أرسطوطاليس ، ومن ذلك جوامع كتب أرسطوطاليس في الطبيعيات والالهيات ، وكتاب ما بعد الطبيعة وتلخيص كتاب الأخلاق وكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعي وشرح كتاب السماء والعالم وشرح كتاب النفس .

وبسط آراءه في بعضها الآخر ككتاب تهافت التهافت يرد فيه على كتاب التهافت للغزالي وكتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .

وفلسفة ابن رشد تناولت مسائل كثيرة تتدرج من أصل الكائنات الى اتصال الكون بالخالق وعلاقة الانسان به ثم المادة وخلق العالم .

وتأثير ابن رشد في تاريخ الفكر الأوروبي حاسم لا جدال

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٧٦/٢ ومايليها

فيه ، فقد كانت الفلسفة قبل انتشار فلسفة ابن رشد عبارة عن تعاليم لاهوتية جمعت مما كتبه أصحاب المذاهب اللاتينية ، وأول من أدخل فلسفة ابن رشد الى أوروبا هو ميخائيل سكوت عام ١٢٣٠ فى طليطلة ، وحذا حذوه هرمان الألمانى ، وظل المترجمون بعد ذلك ينقلون كتب ابن رشد ، بحيث انه لم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع كتبه قد ترجمت الى اللغة اللاتينية فنفذت بذلك الى أوروبا .

غير أن فلسفة ابن رشد لم تلبث أن لقيت مقاومة من رجال الاكليروس ، وكان من أكبر خصومها القديس توما الأكوينى ، الا أنه كان أول تلاميذه وأكثرهم تأثرا به ، فالعلاقة قوية بين فلسفة ابن رشد والقديس توما فيما يتعلق بالتوفيق بين الحكمة والشريعة .

وظلت الفلسفة الرشدية مجالا للصراع الى أن انتصرت فى كلية بادو المشهورة فى ايطاليا وكان فيها جان دى جاندون ، وهو من أعظم أنصار فلسفة ابن رشد ، حتى دعى « سلطان الفلسفة ، وأمير الفلاسفة » ، ثم نهض بعده بولس البندقى وكان من السالكين سبيله ، ولم ينتصف القرن الخامس عشر حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق فى كلية بادو والمعلم الأكبر الذى لا يقاوم .

العلوم العقلية

اشتغل الأندلسيون بالعلوم العقلية من طب الى موسيقى الى فلك ، وكان لهم فيها باع طويل ، وقد أرخ صاعد أولية العلوم بوسط المائة الثالثة فى تاريخ الهجرة فى أيام الأمير الخامس من ملوك بنى أمية ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، فذكر أنه قد تحرك حينئذ أفراد من الناس الى طلب العلوم ، ولم يزالوا يظهرون ظهورا غير شائع الى قريب من وسط المائة الرابعة .

فممن اشتهر من العلماء ما بين وسطى هاتين المائتين ، فاعتنى بعلم الحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبى عبيدة البلنسى المعروف بصاحب القبلة ، وانما عرف بذلك لأنه كان يسرف كثيرا فى صلاته ، وكان عالما بحركات الكواكب وأحكامها (١) .

ومن أوائل من نبغوا فى الأندلس أبو القاسم عباس بن فرناس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وأول من فك بها كتاب العروض للخليل وأول من فك الموسيقى ، وصنع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف الأوقات على غير

---

(١) طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٠.

رسم ومثال، واحتال فى تطير جثمانه وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين ، وطار فى الجو مسافة بعيدة ، ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه فتأذى فى مؤخره ولم يدر أن الطائر انما يقع على زمكه ، ولم يعمل له ذنبا ؛ وصنع فى بيته هيئة السماء ، وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ، وقد توفى سنة ٢٧٣ هجرية .

واشتهر فى أيام الأمير عبد الله يحيى بن اسحاق ، وكان طبيبا صانعا بيده ، وقد استوزره الناصر ونال عنده حظوة .

ونبغ فى زمن الحكم المستنصر أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ؛ ذكر صاعد أنه كان امام الرياضيين فى وقته وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك ، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب ، وشغف بفهم كتاب بطليموس المعروف بالمجاسطى ، وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى، ونقل تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى ، ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة ، وأنجب تلاميذ عدة أشهرهم أصبغ بن السمح البارع فى النجوم والهندسة ، وأبو القاسم بن الصفار أستاذ الرياضيات فى قرطبة ، وأبو الحسن الزهراوى .

ومن أشهر أئمة الفلك ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بابن الزرقيال ، فقد كان أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب وهيئة

الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ، وكان من مآثر بنى هود ملوك سرقسطة وما اليها عنايتهم بالعلم ، وكان المؤتمن قائما على أمور الرياضية ، وله فيها تآليف ، وفى بلاط بنى هود نشر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى علمه ، وكان أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، ومما يذكر له أنه جلب معه رسائل اخوان الصفا ولا يعلم أحد أدخلها الأندلس قبله ، وتوفى أبو الحكم سنة ٤٥٨ (١) .

وأما الطب فأول من اشتهر به فى الأندلس أحمد بن اياس من أهل قرطبة ، كان فى أيام الأمير محمد ، وفى زمنه أيضا ورد رجل من أهل حران كان يعرف بالحرانى؛ وزهت الأندلس فى أيام الناصر لدين الله بأعيان الأطباء ، وكان من الهدايا التى أهداها به قسطنطين السابع امبراطور بيزنطة كتاب ديسقرويدس فى الحشائش والنباتات الطبية باللغة اليونانية ، ولم يكن فى قرطبة من نصارى الأندلس من يحسنها ، فبعث الامبراطور الى الناصر نقولا الراهب الذى اجتمع مع نفر ممن لهم المام بالمادة الطبية ، قال ابن جلجل : « افصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ، تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ما أزال الشك فيها عن

---

(١) طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٧ ومايليها .

القلوب ، وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف الا القليل منها الذى لا بأس به ولا خطر له » (١) .

ابن جلجل الذى نقلنا عنه هذه العبارة هو أبو داود سليمان ابن حسان ، كان طبيبا في أيام هشام المؤيد ، وقد فسر أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس وأوضح ماغمض منها فى كتاب له سماه « كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » ألفه فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٧٢ بمدينة قرطبة .

وممن نبغ فى هذا الباب الوزير أو المطرف عبد الرحمن بن محمد عبد الكبير المعروف بابن وافد من أشراف أهل الأندلس ، قال القاضى صاعد : « وتمهر بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره ، وألف فيها كتابا جليلا لانظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان فى كتاب الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب (٢) » .

ثم كان بنو زهرة من أعيان اشبيلية نجوما فى سماء الطب والعلاجات بالأندلس ، توارثوا العلم ابنا عن أب ، فأولهم

---

(١) عيون الأنباء ٤٨/٢ .
(٢) نفس المصدر ٤٩/٢ .

أبو مروان عبد الملك أقام أول أمره فى دانية على عهد مجاهد ، ثم انتقل الى اشبيلية وخلفه ابنه أبو العلاء وكان في دولة المرابطين ، وقد اشتهر بالحذق والمعرفة ، وله علاجات تدل على قوته في صناعة الطب واطلاعه على دقائقها ، ولحق به في صناعة الطب ابنه أبو مروان الذى شاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد ، واشتغل الأطباء بمصنفاته ، ولم يكن فى زمانه من يماثله فى مزاولة أعمال صناعة الطب ، وكان مكينا عند عبد المؤمن ابن على خليفة الموحدين وألف له الترياق السبعينى .

التصوف

لم يكن حظ الأندلس من التصوف أدنى من حظ غيرها من أقطار العالم الاسلامى ، وحسبنا للتدليل على ذلك أن نذكر من أعلام التصــوف الأندلسى محيى الدين بن عربى وعبد الحق ابن سبعين .

ابن عربى :

محيى الدين بن عربى الحاتمى ، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ . ودرس بها على الشيوخ ، وانتقل منها الى اشبيلية فأقام بها زمنا ثم ارتحل الى الشرق ، وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفى وابن عساكر وأبو الفــرج بن الجــوزى ، ودخل مصر وأقام بالحجــاز ، ودخل بغــداد والموصل وآسيا الصغري ، ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .

وقد أتاحت له ســياحاته لقاء كثــير من العلماء والمتعبدين وصحبة الصوفية وأرباب القلوب، فسلك معهم طريق الفقر وحصل فنونا شتى ، حتى كان من أكبر علماء الطريق، جمع بين العلوم الكسبية وما وفر له من العلوم الوهبية ، وكان يلقب بالقطب والغوث والشيخ الأكبر والكبريت الأحمر ؛ وتصانيفه كثيرة

ما بين منظوم ومنثور، من أجلها شأنا (الفتوحات الملكية» ، وله « فصوص الحكم » مزج فيه التصوف بالفلسفة ، و « ذخائر الأعلاق ، شرح ترجمان الأشواق» وهو ديوان شعر ولد فيه من المعانى فى الحب الالهى ما لم يسبق اليه ، ولجأ فى أكثر مصنفاته الى الرمز والايماء فرارا من التصريح الذى قد يثير عليه ثائرة أهل الظاهر .

ومع ذلك اشتدت حملتهم عليه ورماه كثير منهم بالكفر والالحاد ، ولم تنقطع الحملة عليه بعد موته ، فكان من أشدهم ابن تيمية وابن حجر العسقلانى وابراهيم البقاعى الذى صنف فى ذلك كتابين أحدهما «تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى» والثانى « تحذير العباد من اهل العناد ببدعة الاتحاد» . على أن آخرين منهم قد أنصفوه وبرؤوه وتأولوا كلامه تأويلا حسنا .

وكان ابن عربى ظاهرى المذهب فى العبادات ، باطنى النظر فى الاعتقادات ، قد جمع فيما كتبه بين الفلسفة والتصوف وهو يذهب مذهب وحدة الوجود فوجود المخلوقات عنده عين وجود الخالق لافرق بينهما من حيث الحقيقة ، ويدل على ذلك قوله فى «الفتوحات المكية» (سبحان من خلق الأشياء وهو عينها) (١)، وقوله :

يا خالق الأشياء فى نفسه	أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهى كونه	فيك فأنت الضيق الواسع(٢)

---

(١) الفتوحات المكية ٦٠٤/٢ .
(٢) فصوص الحكم ١٣٩ .

ووحـدة الوجود هـذه هى التى آثارت عليه حنق الفقهاء كما أثارتهم على الحلاج من قبل ، وله فى وحدة الأديان مذهب شبيه بالحلاج أيضا حيث أنكر ما يعبد من الصور من حيث هى أعيان ، وذهب الى أن العبادة هى أن ينظر العبد الى جميع الصور على أنها مجال لحقيقة ذاتية واحدة هى حقيقة الاله ، وفى ذلك يقول الأبيات المشهورة .

لقد صـار قلبى قابلا كل صـورة
فمرعى لغـزلان ودير لرهبـان
وبيت لأوثـان وكعبـة طائـف
وألواح توراة ومصـحف قـرآن
أديـن بدين الحـب أنى توجهت
ركائبه فالدين دين وايمانى (١)

وقد طبقت شهرة ابن عربى آفاق العالم الاسلامى وانتقلت الى العالم الأوربى ، وحسبنا أن نذكر ممن تأثروا به : « دانتى ورامون لول » ؟ ومن أجل الكتب التى ألفت فى بسط تفكيره كتاب المستعرب الأسبانى آسين بلاسيوس الذى عنوانه «الاسلام المتنصر» EL Islam Cristianizado

---

(١) ذخائر الاعلان بترجمان الأشواق ٣٩/٤٠ .

ابن سبعين :

هو أبو محمد عبد الحق بن سبعين ، يلقب بقطب الدين ، من أهل مرسية ولد سنة ٦١٤ ، درس العربية والآداب بالأندلس ثم انتقل الى سبتة وانتحل التصوف وعكف برهة على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها ، فمالت اليه العامة ، ثم رحل الى المشرق وحج حججا وشاع ذكره وعظم صيته وكثر أشياعه .

وقد تعددت آراء الناس فيه فوقره البعض وكفره البعض الآخر ، قال ابن الخطيب في الاحاطة : للناس في أمره اختلاف بين الولاية وضدها ، ولما وجه الى كلامه سهام الناقدين قصر أكثرهم عن مداه في الادراك والخوض في تلك البحار والأطلاع ، وساءت منهم في الممازجة له السيرة ، فانصرفوا عنه مكلومين ، ينذرون عنه في الآفاق من سوء القالة ما لا شيء فوقه ، وجرت بينه وبين أعلام الشرق خطوب وعاقه الخوف من أمير المدينة عن الدخول اليها ، الى أن توفي فعظم بذلك الحمل عليه وقبحت الأحدوثة عنه (١) .

وقد ترامى صيت ابن سبعين الى أقطاب العالم المسيحي في عصره فذكره البابا وتحدث عنه ، نقل المقري أن الأمير أبا عبدالله ابن هود سالم طاغية النصارى ، فنكث به ولم يف بشرطه فاضطره ذلك الى مخاطبة القس الأعظم برومية ، فوكل أبا طالب بن سبعين

(١) نفح الطيب ١/٤١٨ .

أخا أبى محمد عبد الحق بن سبعين فى التكلم عنه والاستظهار بين يديه ، فلما بلغ ذلك الشخص برومية ، وهو بلد لايصل اليه المسلمون ، ونظر الى ما جيده وسئل عن نفسه فأخبر بما ينبغى، كلم ذلك القس من دنا منه بكلام معجم ترجم لأبى طالب بما معناه • اعلمــوا أن أخا هـــذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه (١) •

ولمـا أراد فردريك الثانى صاحب صقلية استيضاح بعض المسائل الفلسفية لم يجد فى مصر ولا فى الشام أو العراق أو اليمن من يجيب سؤاله ، وانتدب ابن سبعين للرد عليها ، وكان من ثمرة ذلك المسـائل الصقلية التى تدل على المـامه بأطراف المذاهب الفلسفية •

وابن سبعين يقول بالوحدة المطلقة والاتحاد على نحو ما قال بها غيره من متصوفة خلطوا التصوف بأصول من الأفلاطونية الحديثة •

---

(١) نفح الطيب ١/٤١٧ .

التاريخ

للتاريخ عند الأندلسيين مكانة رفيعة تتجلى فى كثرة ما ألفوا فى أحوال بلادهم ، وقد باهى ابن حزم بتفوق قومه فى هـذا الباب ، فذكر أنه قلما خص أبناء مصر من الأمصار الاسلامية بلدهم بتأليف دون سائر البلاد كالأندلسيين، وضرب لذلك أمثلة بتاريخ بغداد والبصرة والكوفة وهما من أمهات الأمصار (١) والواقع أن الأندلسيين برزوا فى التاريخ وكأنهم قصدوا بذلك اظهار ما لهذا الصقع النائى من فضيلة يتميز بها بين بلاد العالم الاسلامى •

وأولية التاريخ الأندلسى غامضة كأكثر فروع العلم ، وانما بدأ التاريخ ببداية الدولة الآموية التى عنى أمراؤها بتسجيل مآثرهم وتخليد أعمالهم ، فكان أكثر الأخباريين والمؤرخين فى العهد الأول من موالى الآمويين يكتبون أخبار الملوك وحروبهم وسياستهم •

وأول من عرف بتأليف من مؤرخى الأندلس أبو مروان عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، قيل انه من موالى سليم،

---

(١) نفح الطيب ١/١٢٩ •

وكان نحويا عروضيا شاعرا حافظا للأخبار والأنساب ، طويل اللسان متصرفا فى فنون العلم .

وتصانيفه كثيرة يعنينا منها كتابه فى التاريخ الذى يوجد مخطوطا فى مكتبة أكسفورد وهو كما عرف به مؤلفه : كتاب فى ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيهامن ابتداء خلق السموات وخلق البحار والجنة والنار وخلق آدم وحواء ، ماكان من شأنهما مع ابليس وعدة الأنبياء نبيا نبيا الى محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين ، وعدة الكتب المنزلة وعدة الخلفاء الى حين استفتاح الأندلس وما وجد فيها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت والزمرد والأمتعة وما أخرج منها وعدة ملوكها ومن وليها ومن يليها وذكر شيء من الحدثان » (١) .

فابن حبيب جعل التاريخ العام بمثابة مقدمة لتاريخ الأندلس الذى لم يتوسع فيه ، وانما اقتصر على افتتاحها وأفاض فى الأخبار التى تناقلها القصاص عن أمر الفتح ، والظاهر أنه اعتمد فى تاريخه على مادونه مشايخ مصر من هذه الأخبار كما يؤخذ من قوله فى بعض المواضع من كتاب «حدثنا بعض مشايخ مصر» ، كما اعتمد أيضا على ماتناقله الأندلسيون لعهده فى شأن افتتاح الأندلس (٢) .

وممن يذكر بين المؤرخين يحيى بن الحكم الشاعر المعروف

---

(١) F. Pons Boigues: Hist. Geog. ص ٣٢

(٢) نفح الطيب ٢/٣٧ .

بالغزال ، فقد ذكر المؤرخ ابن حيان أن له فى فتح الأندلس أرجوزة حسنة مطولة نظم فيها ذكر السبب فى غزوها وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعدد الأمراء عليها وأسماءهم فأجاد وتقصى (١) .

غير أن شيخ المؤرخين فى هذه الحقبة بلا منازع هو محمد بن موسى الرازى المتوفى سنة ٢٧٣ ، وهو أول ثلاثة عرفوا باسم الرازى ، وفد الى الأندلس من الري قريبا من سنة ٢٥٠ واستوطن فيها ، وكان مكينا عند الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقد اشتهر بكتاب الرايات الذى ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير وكم راية دخلت من قريش والعرب، فعدها نيفا وعشرين راية ، منها رايتان لموسى بن نصير عقد له احداهما أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على أفريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على افريقية أيضا ومايفتتحه وراءها الى المغرب ، وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه. وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العيال ، وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية (٢) .

وقد خلفه ابنه أبو بكر ويعرف بالتاريخي، وقد ألف كتاب

(١) نفح الطيب ١/١٧٨ .
(٢) Pons Boigues : Hist. y Geog. ص ٤٦ .

أخبار ملوك الأندلس ، وكتابا فى صفة قرطبة ، وكتاب أعيان
الموالى بالأندلس .

والذى بقى من مصنفاته ترجمة أسبانية لمقدمة كتابه فى التاريخ
عنوانها "Cronica del Moro Rasis" . نقلت عن ترجمة
برتغالية وضعها القس خليل بيريس بأمر من ملك البرتغال دون
دنيونيس (١٢٧٩ — ١٣٢٥) ، وتشتمل علـى وصف لأسبانيا
الاسلامية مع تقسيمها الى كور وأقاليم ؛ وكان المظنون الى عهد
قريب أن النص البرتغالى قد ضاع ثم اهتدى اليه أحد الباحثين
البرتغاليين ونشر المستشرق ليفى بروفنسال ترجمته الى اللغـة
الفرنسية فى سنة ١٩٥٢ ، ووفقنا منذ عام الى العثور على نص
لابن غالب صاحب « فرحة الأنفس » نقل فيه كلام الرازى عن
أقاليم الأندلس وكورها ، ووجدنا أن المطابقة بينه وبين الترجمة
الفرنسية للنص العربى تكاد تكون تامة الا مايقتضيه تغير الزمن
والظروف .

وثالث آل الرازى هو عيسى بن أحمد وهو حفيد الأول وابن
الثانى ، وقد توفى فى أيام الحـكم المستنصر أو ابنه هشام ؛
ومن كتبه تاريخ الأندلس وكتاب حجاب الأندلس الذى لايعرف
عنه الا اسمه .

ثم من أعلام التاريخ فى هذه الحقبة أبو بكر محمد بن عمر الذى

اشتهر بابن القوطية نسبة الى سارة القوطية ابنة غيطشة اذ هو من نسلها ، وكان أبو بكر من أعلم أهل زمانه باللغة وكان مع ذلك حافظا للحديث والفقه والخبر والنوادر ، وكتابه الموسوم بتاريخ أفتتاح الأندلس من المراجع المعول عليها أرخ فيه للأندلس منذ فتحها الى عصر عبد الرحمن الناصر .

وأعظم المؤرخين فى الأندلس بلا منازع أبو مروان حيان بن خلف ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ ، فهو بأسلوبه وبطريقة كتابته في طليعة المؤرخين العرب الذين نظروا الى التاريخ نظرة شاملة تتناول نواحي النشاط الانسانى فى الحقبة التى يؤرخها؛ يذكر المعالم البارزة للعصر ثم يستطرد الى التفاصيل فلا يدع جزئية دون أن يلم بها ، ويطلق على الشخصيات التى يؤرخ لها أحكاما سديدة لا مجاملة فيها ولا محاباة بل يعطى كل ذى حق حقه ، فيذكر الفضائل كما يذكر النقائص ؛ هذا مع أسلوب جزل وعبارة مرسلة لا تكلف فيها ولا تصنع ودقة فى الألفاظ التى يختارها .

وقد ذكر بونس بويجس (١) له ثمانية كتب منها رسالة فى معرفة التابعين ، وانتخاب من أخبار القضاة ، والانتخاب الجامع لمآثر بنى خطاب ، وكتاب جمع فيه بين كتابى القبشى وابن عفيف ، ومنتخب من تاريخ أبى عمر بن عفيف وأخبار الدولة العامرية .

(١) Pons Boigues : Hist. y Geog. ص ١٠٢ .

أما أجل كتبه فكتابان هما «المقتبس في تاريخ رجال الأندلس» أرخ فيه للأندلس قبل عصره ، ثم « المتين » وقد أرخ فيه الحوادث التى عاصرها ؛ والكتاب الأول لم يبق منه الا أجزاء ثلاثة نشر منها الجزء الخاص بخلافة الأمير عبد الله السابع من خلفاء المروانيين وقد نشر من مخطوطة فيأوكسفورد، أما كتاب المتين فلا يعرف منه الا ما نقله ابن بسام فى ذخيرته .

وقد عدد ابن سعيد المغربى(١) المصنفات التاريخية ، فذكر منها كتاب المظفر بن الأفطس ملك بطليموس المعروف بالمظفرى نحو كتاب المتين ، وفيه تاريخ على السنين وفنون آداب كثيرة ، وتاريخ ابن صاحب الصلاة فى الدولة اللمتونية ، ومنه نسخة مخطوطة فى مكتبة أوكسفورد ؛ ومن كتب التراجم كتاب أبى القاسم خلف بن بشكوال المعروف بكتاب الصلة ، وقد ذيل عليه أبو عبد الله بن الأبار البلنسى بكتابه التكملة ، وللحميدى كتاب جذوة المقتبس ، وللقاضى أبى الوليد الفرضى كتابه فى أخبار العلماء والشعراء .

وكان خاتمة المؤرخين فى الأندلس الوزير لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ ، اذ لم تجد أيام الاسلام فى الأندلس بعده بمثله فى غزارة المادة والتفنن فى العلوم والمعارف

---

(١) نفح الطيب ١٠/١٣٦ .

وكثـرة الانتاج ؛ وكتبه عليها المعول في تاريخ القرن الثامن الهجرى ، وأشهرها كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة ، الذى استوعب فيه تاريخ غرناطة منذ عصر الفتـح الى قيام دولة بنى نصر ، وضمنه وصف غرناطة وخططها وخواصها وترجم لأعلامها من الكبراء والرؤساء والوزراء والكتاب والشعراء .

علوم اللغة

عن الأندلسيون باللغة والأدب منـذ عصر مبكر ، فكانوا يروون أبناؤهم الفصيح من المنثور والمنظوم ليربوا فيهم الملكات الأدبية جارين فى ذلك على السنة العربية القديمة ، وقد أخذت الاندلس منذ عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط تتسم عبـير الحضارة العباسية ، وقد بلغت أوجها أيام المأمون ، فكان مما نقله الأندلسيون من بين ما نقلوا كتب اللغة ودواوين الشعر .

وقد انتهت الى الأندلس أمهات الكتب فى النحو منذ أواخر القرن الثانى ، فأدخل جودى بن عثمان العبسى المتوفى سنة ١٩٨ كتاب الكسائى ، وكان جودى قد رحل الى المشرق وأخذ عن الرياشى والفراء والكسائى .

وكان للقوم عناية بحفظ الكتب واستظارها ، وقد قيل أن أول من حفظ كتاب سيبويه حمدون النحوى ، وكان الأفشتين القرطبى المتوفى سنة ٣٠٩ من أشهر حفاظه كذلك .

ثم أكثروا من التعليق عليه منذ القرن الخامس ، فكان من شراحه أبو بكر الخشنى الجيانى المتوفى سنة ٥٤٤ ، وشرحه ابن خروف المتوفى سنة ٦٠٩ وابن عصفور المتوفى سنة ٦٦٩ ، ولم

يبلغ أحد في فهم الكتاب والتصرف فيه مثل مابلغه أبو الحسن الاشبيلي المعروف بابن الصائغ المتوفى سنة ٦٨٠ .

وعلماء الفقه والنحو في الأندلس تزخر بهم كتب التراجم والطبقات ، فقد كانت المنافسة بنهم وبين المشارقة مدعاة الى تبريزهم في هذه العلوم ، ثم كان لتشجيع ملوكهم وأمرائهم أثر في ازدهار التأليف وكثرته ، وقلما جاد القرن الخامس بمثل ابن سيده ، صاحب المخصص والمحكم ، فهو لا يبارى في حفظ اللغة ؛ وفي القرن السابع والثامن انتهت اليهم علوم العربية ، فكان من مفاخرهم أبو عبد الله بن مالك الجياني صاحب الألفية والتسهيل ، وأبو العباس الشريشي صاحب الشروح الثلاثة على مقامات الحريري ، وأبو الحسن ابن خروف امام العربية في زمنه ، وأبو العباس الاشبيلي المعروف بابن الحاج ، وكان متحققا بالعربية حافظا للغات مقدما في العروض ، وقد برع في لسان العرب حتى لم يبق من يفوقه أو يدانيه ؛ وأبو على الاشبيلي المعروف بالشلوبين ، واليه انتهت امامة العربية في عصره فكان آخر أئمة هذا الشأن ، وأبو الحسن بن عصفور وكان فردا في زمانه في علم النحو ، ثم أثير الدين أبو حيان الغرناطي نحوي عصره ولغويه ومفسره والامام المطلق في النحو والصرف .

الأدب

لم يكن حظ الأندلسيين فى الأدب بأدنى من حظهم فى علوم العربية ، وقد وفد من المشرق أبو على القالى فى خلافة الناصر لله ، وكان يظن أن الأندلس لبعدها غريبة اللسان فوجد علما راقه وبهره ، وكان أبو على ممن حملوا الى الأندلس تراثا مذكورا فى الشعر والأدب ، وتخرج به كثير من الأندلسيين ، وكان أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين ، أخذ الأدب عن أبى بكر ابن دريد الأزدى وأبى بكر بن الأنبارى وابن درستويه وغيرهم ، وأملى من حفظه كتاب النوادر الذى جمع فيه من رائق الشعر ما قل أن يوجد فى كتاب آخر ، وتلك فضيلته على كتاب الكامل للمبرد •

وكتاب العقد الفريد لأحمد بن محمد عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ من أركان الأدب وأصوله ، فهو مرآة لثقافة الأندلسيين فى الأدب وما يتعلق به من أخبار ، وكان مصنفه أبو عمر عالما ثبتا له بالعلم جلالة وبالأدب رياسة •

أما عنايتهم بأدب بلادهم وأخبار شعرائهم فقد تمثل فى كتاب الحدائق لأبى عمر أحمد بن فرج الجيانى اذ لم يورد فيه لغير أندلسى شيئا ، وقد عارض به كتاب الزهرة لأبى بكر بن داود ،

الا أن أبا بكر انما أدخل مائة باب فى كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتى باب فى كل باب مائة بيت ليس فيها باب تكرر اسمه لأبى بكر .

ثم كثر التأليف فى عصر المرابطين منافسة للمشارقة فيما ألفوا عن أخبار شعرائهم ، فألف ابن بسام كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ليثبت به تفوق شعراء بلاده ، وقد نظر وهو يؤلفه الى كتاب يتيمة الدهر للثعالبى ، والكتاب فى شعراء الأندلس كالأغانى فى شعراء المشرق لايغنى عنه سواه فى هذا الباب ؛ وفى هذا العصر صنف الفتح بن خاقان كتاب القلائد ذكر فيه المعاصرين له من الوزراء والكتاب والشعراء ، ثم ألف المطمح الذى أورد فيه مشاهير الأندلس فى كل طبقة .

وتلا هؤلاء أبو عمرو بن الامام فذكر فى كتابه « سمط الجمان وسقط المرجان » من لم يوفه ابن بسام وابن خاقان حقه من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره فى بقية المائة السادسة ، وذيل عليه وان كان ذيلا قصيرا أبو بحر صفوان بن ادريس بكتابه «زاد المسافر» ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة .

أما الكتاب الذى أكثر بن سعيد المغربى من الثناء عليه فهو كتاب أبى محمد عبد الله بن ابراهيم الحجارى المسمى بالمسهب فى فضائل المغرب، صنفه بعد الذخيرة والقلائد من أول ماعمرت

الأندلس الى عصره ، وخرج فيه عن مقصد الكاتبين الى ذكر البلاد وخواصها مما يختص بعلم الجغرافيا وخلطه بالتاريخ وفنون الأدب ، وقد ذيل عليه عبد الملك بن سعيد ، ثم ذيله على ذلك ابناه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم على بن موسى. وهكذا تعاقب على تأليف هذا الكتاب ستة أشخاص فى ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ ؛ وألف فى شعراء المائة السابعة ابن هانىء اللخمى المتوفى سنة ٧٣٣ كتاب الغرة الطالعة ؛ ولابن الخطيب كتاب فى شعراء المائة الثامنة سماه الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة .

وأما المنثور من فنون الأدب فكتاب سراج الأدب لأبى عبد الله بن أبى الخصال الشقورى رئيس كتاب الأندلس ، صنفه على منزع كتاب النوادر لأبى على ، وزهر الآداب للحصرى وكتاب اللآلى لأبى عبيد البكرى على كتاب الأمالى لأبى على ، وكتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب .

الشعر الأندلسى

كان الشعر الأندلسى فى بدايته كقائليه أشبه بالطارىء على شبه الجزيرة ، فلم يكن فيه من طابعها ولا من حياة أهليها شىء ، وقد حفظ التاريخ أسماء بعض هؤلاء الشعراء كأبى الأجرب جعونة بن الصمة الكلابى ، وكان يذهب فى شعره مذهب الأوائل .

ثم تقدم الزمن وامتزجت الدماء وأخذت العبقرية الأندلسية تؤتى أكلها بفضل ما ورد اليها من تراث العراق الشعرى أيام المحدثين ، وقد تردد حينئذ صوت يحيى بن الحكم البكرى الجيانى الذى لقب بالغزالة لجماله ، وكان ممن رحل الى الشرق وعاصر خمسة من المروانيين أولهم عبد الرحمن الداخل وآخرهم الأمير محمد ، وقد جرى فى شعره على طريقة أبى نواس وغيره من المحدثين ، وتهيأت له حياة أمدته بموضوعات شعرية أصيلة ، وله فى سفارته الى القسطنطينية شعر تغزل فيه بالملكة تود ، وشعر مفحش على أسلوب أبى حكيمة راشد بن اسحاق ، وتوفى فى حدود الخمسين والمائتين .

على أن البيئة الأندلسية باعتبارها بوتقة انصهرت فيها عناصر

شعرية شتى ان كان قد دل عليها شيء فانما دلت عليها الموشحات، فهي شعر عربي بني على أغنية شعبية كانت شائعة باللغة اللاتينية الحديثة التي تعرف بالرومانسية ، وكان مخترع هذا الضرب فيما قيل مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله ، ويعرف الجزء الأخير من الموشحة وهو الذي يتضمن ألفاظا رومانسية بالخرجة .

وأول من نبه على نشأة الموشحات بهذه الصورة المستعرب الأسباني خوليان ريبيرا ، لكن كانت تعوزه الشواهد لاثبات نظريته ، ثم وقف اشترن في سنة ١٩٤٨ على احدى وعشرين خرجة باللغة الرومانسية في موشحات عبرية وموشحة واحدة عربية ، وظهرت بعد ذلك أربع وعشرون خرجة في موشحات عربية . ومن أمثلة هذه الخرجات الخرجة التي في موشحة أبي العباس الأعمى التطيلي المتوفى سنة ٥٢٠ ، وفيها يتحدث عن عيد العنصرة ، وكان يحتفل به المسلمون والمسيحيون على السواء ونصها :

ألْب دِيهْ اشْت دِيَه   دِيَ ذَا العنْصر شقّا
بِشْتِرِي مُو المدبّج   ونشقّ الرمح شـقّا

ويمكن ترجمة ما فيها من ألفاظ رومانبية على هذا النحو : هذا اليوم فجر وهو يوم العنصرة سألبس فيه المدبج.. الخ .

أما تركيب الموشحة فيختلف عن تركيب القصيدة في أن

الأولى يخالف الشاعر فيها بين القوافي ؛ والأبيات التى تتباين قوافيها تسمى الأغصان ، والتى تتفق قوافيها تعرف بالأسماط أو الأقفال ؛ أما الخرجة فهى أهم جزء فى الموشحة ، وتقوم فيها مقام المطلع فى القصيدة ، وأكثر ما تكون الخرجة فى لغة عامية أو أعجمية ، أما سائر أجزاء الموشحة ففى العربية الفصحى .

فالموشحة التى خرجتها رومانسية ثمرة لامتزاج اللغة الرومانسية باللغة العربية ، فقد بين ابن بسام فى الذخيرة نشأة الموشحات وذكر أول من اخترعها ومن تطورت على أيديهم بعد ذلك فقال: « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغنى محمد بن محمود القبرى الضرير ، وكان يصنعها علىأشطار الأشعار، غيرأن أكثرها علىالأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان ، وقيلان ابن عبد ربه صاحب كتابالعقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هارونالرماوى فكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكيز ، يضمن كل موقف يقف عليه فى المركز خاصة ، فاستمر على ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابن أبى الحسن ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف فى الأغصان فيضمنها ، كما اعتمد الرمادى مواضع الموقف في المراكز ».

فعبادة كما يؤخذ من كلام ابن بسام عماد التوشيح والركن الذى قام عليه ، وقد ذكر ذلك ابن بسام فى موضع آخر فقال: كان فى ذلك العصر شيخ الصناعة وآخكم الجماعة .. وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتها ووصفوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا عمادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها تسمع بالأندلس إلا منه ؟ وأخذت الا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته (١)

وازدهر التوشيح فى عصر المرابطين فكان فيه أبو العباس الأعمى التطيلي ويحيى بن بقى ومحمد بن أحمد الأنصارى ، المعروف بالأبيض والحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين ، واشتهر فى المائة السادسة الفيلسوف أبو بكر بن زهر المتوفى سنة ٥٩٥ ، وازدان القرن السابع بابراهيم بن سهل الاسرائيلى وشاح اشبيلية وشاعرها المتوفى بسنة ٦٤٩ .

هذا ما كان من أمر الموشحات التى اشتهرت بين المشارقة وشاعت بينهم وكان لها أثرها فى الشعر الأوربى كما سنبين ذلك فى موضعه .

أما الشعر الفصيح فقد نافست الأندلس به أهل الشرق، فلم يكد يطلع القرن الرابع حتى ازدانت الأندلس بجملة الشعراء

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١ ــ ٢ .

فيهم ابن عبد ربه صاحب العقد ، وابن هانىء الالبيرى الذى ترك وطنه ورحل الى المغرب ، وابن أبى زمنين ، والمصحفى وابن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق .

وممن نبغ فى المائة الخامسة أبو عامر بن شهيد المتوفى سنة ٤٢٧ صاحب رسالة التوابع والزوابع التى ذهب فيها مذهبا لم يباره فيه الا أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران وهو يمثل الرقة الحضرية والترف الذهنى الذى بلغته الأندلس فى عهده .

وزهت دولة الشعر فى أيام ملوك الطوائف بأعظم شعراء الأندلس وكانوا لايزون أنفسهم بأقل من شعراء المشرق، وبلغ من تنافس الملوك على الشعر وأهله ما حكاه الشقندى من أن أحد شعرائهم لما رأى منافستهم فى أمداحه حلف ألا يمدح أحدا منهم بقصيدة الا بمائة دينار، وأن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سطوته وافراط هيبته كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه فى قسمه (١) .

وقد حفل هـذا العهد بالشعراء وكان لكل دولة شعراؤها اللذين اختصوا بها ، فمن شعراء المعتمد بن عباد بأشبيلية ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وعبد الجليل بن وهبون ، على أن المعتمد نفسه كان شاعرا ردد فى شعره أرق الأنغام فى حالتى

(١) نفح الطيب ١/ ١٤٠ .

النعمى والبؤسى ، وكان من شعراء المتوكل صاحب بطليوس ابن عبدون ، ومن شعراء المعتصم بن صمادح صاحب المرية ابن الحداد وأبو الوليد النحلى وأبو الفضل بن شرف .

واذا كان عصر ملوك الطوائف يعد عصر الشعر الفصيح فان عصر المرابطين يعد عصر الزجل ، فقد ظهر أبو بكر بن قزمان امام الزجالين بالأندلس التى شاعت أزجاله وتعلقت بها قلوب الناس سواء فى ذلك المغاربة أو المشارقة ، وخلفه فى الصناعة الزجلية ابن مدغليس الذى ذهب بشهرة القرن السادس . وللزجل كما للموشحات تاريخ طويل اذ يرتبط كلاهما بالشعر الأوربى وله فيه أثر ، نبه عليه الباحثون فى الدراسات المتعلقة بالعصور الوسطى .

على أن دولة الشعر الفصيح لم تدل بل ظل يضرب على أوتاره ابن خفاجة الذى أبدع فى وصف الجنات والرياض ، وابن الزقاق الذى برع فى التشبيهات ، ثم كان عصر الموحدين فحفل بزمرة منهم أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى وأبو العباس أحمد بن سعيد الملقب باللص والأصم المروانى وأبو عبد الله محمد بن ادريس المعروف بمرج الكحل وابن سهل الاسرائيلى .

وكانت تلك الحلبة آخر ما عرفته الأندلس من الشعراء المجيدين فلم ينبغ فى القرن الثامن الا ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك الذي خلد شعره على جدران الحمراء فى غرناطة .

الفصل الرابع

تأثير الإسلام فى إسبانيا

كان مما ذهب اليه بعض الباحثين أن الاسلام بدخوله اسبانيا فى مطلع القرن الثامن الميلادى قد عاق شبه الجزيرة الايبرية ، وحاد بها عن الطريق الذى مضت فيه الأمم الأوربية الأخرى ، فالقرون الثمانية التى لبثها الاسلام فى اسبانيا كانت صراعا متصلا أخر الاقتصاد الأسبانى ، وفتت الوحدة الأسبانية التى لم تعد الا على أيدى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وازابيل فى أواخر القرن الخامس عشر (١) .

وقد كانت مثل هذه الدعاوى تجد من يصغى لها يوم كان للآراء العنصرية أبواق ترددها الا أن الأبحاث التى ظهرت أخيرا فى حضارة العصور الوسطى قد أثبتت أن الاسلام كان عنصرا من عناصر التقدم فى حياة شبه الجزيرة ، وأنه كان جامعا لتراث تأصل فى نفوس الأسبان سواء منهم فى ذلك من استظلوا بظل الدولة الاسلامية في الأندلس أو من عاشوا فى كنف الدول المسيحية .

---

(١) انظر Bornes : Espana y el Islam.. p. 5

ولم يقتصر الأخذ بهذه النظرية على المستعربين الذين كان لهم فضل كبير في تجلية حضارة الاسلام وتأثيره في اسبانيا من ناحية ، وفي العالم اللاتيني من ناحية أخرى ، وانما أخذ بها أيضا أكثر المؤرخين ممن عنوا ببحث العصور الوسطى ، فصاروا يردون معظم الظواهر في التاريخ والأدب والاجتماع والاقتصاد الى أصول اسلامية ثابتة ، وهذا مؤرخ كامير يكو كاسترو ، يقرر في أكثر من موضع في كتابه « اسبانيا في تاريخها » أنه يجد في الاسلام وتراثه تفسيرا لكثير من الحقائق التي خفيت عليه حين كان ينظر اليها من جانب واحد هو الجانب المسيحي ، وفي هذا يقول : وانما ينصرف اهتمامي الى بعض جوانب الحياة في العصور الوسطى وهي جوانب التقت فيها الحضارتان ، وليس قصدي تتبع آثار الاسلام في اسبانيا المسيحية وانما الوصول الى وجهة نظر فيما يختص بكيان الحضارة الايبرية ؟ وقد فكرت كثيرا في هذه النقطة منذ أعوام قليلة ، ولما كتبت في سنة ١٩٣٦ بحثا في بعض المشكلات المتصلة بالقرن الخامس عشر والسادس عشر لاحظت مدى ما هنالك من صعوبة في ادخال العنصر الاسلامي في اطار التاريخ أو التخلص منه ، وانتهيت الى مداورة المسألة ، فلم أكن حينئذ أدري كيف أتناول المشكلة اذ كنت متأثرا في توجيه التاريخ بطرق التفكير التي مضت عليها

قرون عدة ثم بآراء بعض كبار المؤرخين ، وكنت أفكر فى نطاق « المادة » دون « الصورة » التاريخية ، فلقد ذهب المؤرخون الى أن اسبانيا المسيحية كانت عالما ثابتا سقطت عليه ألفاظ وآداب ونظم اسلامية . ولكن بعد أن كتبت أبحاثى فى « الأسبانية والارازمية ». باعتبارها « مواقف حيوية » أخذت أتبين معنى العنصر الاسلامى فى ذلك التاريخ ، وعندئذ بدا لى التاريخ المسيحي الوسيط باعتباره مهمة الجماعات المسيحية من أجل أن تبقى بازاء عالم ظل فى النصف الثانى من تلك الحقبة أسمى من تلك الجماعات فى كل شيء ما عدا الجرأة والروح الحربية ، وقد اتخذ المسيحيون أشياء كثيرة مادية وبشرية مما خلقه المسلمون، ولكنهم لم يتمثلوا وجوه النشاط المنتجة لهذه الأشياء، وما ذلك الا لأنه كان لابد لهم أن يتمثلوا أمورا أخرى لمقاومة المسلمين والانتصار عليهم. وعندى أن الذى لم يصنعه المسيحيون بسبب الموقف الحيوى الخاص الذى وضعهم فيه المسلمون كان أيضا أثرا من آثار الاسلام يشبه الألفاظ التى نقلت من العربية؛ وكذلك الشأن أيضا فى نظام القيم الذى كان لابد أن ينميها المسيحيون ، فهى أمر ضرورى يقع فى حيز الحياة .. فأسبانيا فى العصور الوسطى ثمرة لالتقاء مسلك يقوم على الخضوع والاعجاز بازاء عدو أسمى ، وعلى الجهد المبذول للتفوق على

وضغ آذنى (١) .

فالفتح الاسلامى ، لم يكن مجرد حادث سياسى فى تاريخ اسبانيا وانما كان حدثا حضاريا استهلت به حقبة خلقت فى الحياة الاسبانية بشتى مظاهرها آثارا عميقة لم تنقطع بزوال سلطان الاسلام السياسى بل ظلت ماثلة تتراءى فى كيان اسبانيا وعناصرها المختلفة ، والحياة الاسلامية كانت من التغلغل فى اسبانيا بحيث لم يكن من الطبيعى أن تمحى برفع راية شنتياجو على قصر الحمراء .

أما القول بأن الاسلام عاق اسبانيا وأخر حياتها الاقتصادية فينقضه ماكانت عليه شبه الجزيرة الايبرية أيام المسلمين من حضارة زاهرة لم تبلغ شأوها أمة من الأمم الأوربية فى ذلك الحين ، والاشعاع الذى كان ينطلق من قرطبة الى العالم المسيحى وقتئذ يشهد بما كان لدولة الأندلس من تفوق بهر الشاعرة الألمانية هروزثيا التى نظمت شعرها فى منتصف القرن العاشر وقد سمت قرطبة «زينة العالم» ، كما بهر جان دى جورتس سفير امبراطور ألمانيا أوتون الأول الى عبد الرحمن الناصر وجعله يتحدث عما هنالك من رقة وترف ولا نظير له ، والى قرطبة بالذات حجج

---

(١) Americo Castro : Espana en su historia p. 5

البابا سلفستر الثانى أيام أن كان راهبا ليتلقى العلم فيها وكان بعد ذلك من علماء البابوات وأعظمهم شأنا .

لقد ظلت الدولة المسيحية الى القرن الحادى عشر أشبه بالمحميات للدولة الاسلامية، وكانت قرطبة أشبه ماتكون بالعاصمة الكبرى لاسبانيا يفد اليها الملوك والسفراء يقدمون الى صاحبها فروض الطاعة والولاء ويستجيرون به ويستظلون بظل سلطانه، ولقد كانت الوفود تفد على الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر فيروعها ما ترى وتستشعر الهيبة لجلال الموقف .

ولم يكن ما أصاب الاسلام من وهن سياسى وعسكرى في القرن الحادى عشر ليضعف من تأثير القيم الحضارية للأندلس، بل كان من شأن اجتماع العنصر الاسلامي والعنصر المسيحى فى بقاع اسبانيا ظهور هذه القيم في شتى الصور ، وكانت اسبانيا المسيحية وهى تحارب الأندلس وتنتصر عليها فى القرن الثالث عشر تحس بتفوق المسلمين وسموهم، فجيوش فرناندو الثالث التى دخلت اشبيلية فى سنة ١٢٤٨ بعد صراع دارت فيه الدائرة على المسلمين لم تستطع أن تخفى اعجابها بعظمة المدينة التى فتحت أبوابها اذ لم يكن للمسيحيين مثل ما فيها من فن وازدهار اقتصادى وتنظيم مدنى وصناعى ونهضة علمية وأدبية .

وقد أفاضت المدونة العامة التى وضعها الفونسو الحكيم فى

وصف عظمة اشبيلية وروائعها فكان مما ورد فيها : ليس هناك أعظم ولا أسمى ولاأنبل من برج المسجد الجامع(الخيرالدا).. الى أشياء أخرى لم نذكرها بلغت من العظمة حدا لانظير له ، ولقد كانت التجارة تتدفق علىاشبيلية من سائر البلاد فتأتيها من طنجة ومن سبتة وبجاية والاسكندرية وجنوه والبرتغالوانجلترا وبوردو وبايون وصقلية وجاسكونيا وقطالونيا وأرغون بل من فرنسا أيضا (١) .

ولم تكن تتردد فى القرن الرابع عشر الا أنغام الأسى لما أصابالأرض من فقر، فحيثما أدار المرء بصره فى أنحاءاسبانيا وجد أرضا قاحلة لا خصب فيها بعد أن هجرها المسلمون .

ولا ينبغى أن يقع فى الوهم أن الحياة فى العصور الوسطى كانت تقوم على الانفصال الجغرافى والعنصرى بين المسلمين والمسيحيين ، وقد أشرنا فيما سبق الى أن المستعربين الذين كانوا يجيدون اللغتين لم يكفوا منذ القرون الأولى عنالهجرة الى الأراضى المسيحية ، فكانوا واسطة لنقل حضارة الاسلام اليها .

هذا الى أن المدجنين وهم المسلمون الذى أقاموا فى ديار

---

(١) Cronica General p. 768/769

المسيحيين كان لهم أثر كبير في الحياة العامة مما سنعرض له بعد ، ثم كان من العناصر التى شاركت فى التفاعل الحضارى النصارى الذين أسلموا والمسلمون المرتدون عن دينهم وطوائف من الناس كانوا يعيشون على التخوم بين الدولة الاسلامية والدول الاسلامية والدول المسيحية ، فكانوا مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، فهم أحيانا عيون على المسلمين وأحيانا أخرى عيون على المسيحيين ، لهم فى كل دولة آذان تصغى اليهم .

فهذه العناصر جميعا يسرت الاتصال بين الحياة الاسلامية والحياة المسيحية وأعانت على بقاء الاسلام فى اسبانيا باعتباره ينبوعا حضاريا لا ينضب ولا يجف ، بحيث أثر فى كيان اسبانيا تأثيرا تجلت مظاهره فى الحياة العامة والتقاليد واللغة والآداب والفنون وغيرها .

صور إسلامية فى الحياة الأسبانية

فى الحياة الاسبانية صور لا سبيل الى تفسيرها الا فى ضوء التقاليد والعادات الاسلامية ، بقيت على مر الزمن لتدل على تأثير الاسلام رغم زوال سلطانه السياسى والعسكرى •

وقد عدد أمير كوكاسترو (١) بعض هذه الصور والمظاهر، فذكر منها الحمام فى اسبانيا فى العصور الوسطى ، وان خريطة للقرى التى فيها حمامات لتدل أقوى دلالة على المنطقة التى خضعت لتأثير اسلامى ظاهر ، فبعض قرى قشتالة التى لا تعرف اليوم الحمامات التى يجرى فيها ماء ساخن كانت تضم فى القرن الثالث عشر حمامات عامة ورد ذكرها فى لوائح البلدية ، من ذلك قرية ذوريتا Zorita وبريهويجا Brihuega فى وادى الحجارة وأوساجرى Usagré فى بطليوس ؛ ومما نصت عليه هذه اللوائح أن على صاحب الحمام أن يقدم للداخلين فيه الماء الساخن والصابون والمناشف •

والحمام عنصر اسلامى يرتبط بالغسل والطهارة فى الاسلام، وللمدجنين أثر كبير فى تشييد الحمامات فى مناطق قشتالة وليون، وقد بقيت هذه الحمامات الاسلامية الى قريب من القرن السادس

---

(١) انظر Americo Castro : Espana en su historia, p. 83-91.

عشر ، يرتادها الرجال والنساء والأطفال ، وقد خصص لكل طائفة منهم يوم من أيام الأسبوع حتى لا يقع الاختلاط المفضى الى الفساد ، ثم أخذت تختفى تلك العادة بين المسيحيين .

وكان مما عاقبت به السلطات الحاكمة الموريسكيين على الثورة التى أشعلوها فى سنة ١٥٦٨ أن تقرر اغلاق حماماتهم وحرمانهم منها ، وقد رد أحد هؤلاء الموريسكيين واسمه فرنسيسكو تنيث مولاى Francisco Nunez Muley فقال : ان الحمامات أقيمت لتنظيف الأجسام ، والقول بانه يجتمع فيها الرجال والنساء مما لا يصدقه العقل . . والحمامات موجودة فى كل مكان ومنتشرة فى سائر الأقاليم ؛ واذا كانت قد أزيلت من قشتالة فماذلك الا لأنها تضعف من قوة الرجال وتحمسهم للحرب ، أما أبناء مملكة غرناطة هذه فليس عليهم أن يقاتلوا ولا على نسائهم تنشيط قواهن ، بل كل ماهنالك حرصهم على أن يكونوا أطهار الأبدان ، واذا كان يحرم عليهم الاستحمام فيها وفى الينابيع والأنهار والبيوت فالى أين يذهبون للغسل والاستحمام ؟ وفى سنة ١٥٦٧ تقرر هدم جميع الحمامات التى كانت فى غرناطة .

ومن صور الحياة الاسلامية أيضا غسل الميت قبل دفنه ، ففى ملحمة فرنان جنثالث التى يرجع تاريخها الى سنة ١٢٤٠ يغسل الكونت فرنان جونثالث عدوه الكونت دى تولوز

قبل أن يلفه في الآكفان وبهذا أيضا تتحـدث المدونة العامة لألفونسو الحكيم .

الحجاب وجلسة النساء :

ومنها أيضا أن يغطي النساء وجوههن ولا يبدين زينتهن ، وقد ظل الحجاب شائعا فيإسبانيا الى القرن السابع عشر ، ففى كثير من مسرحياته مواقفأساسها أن تكشف المرأة عن وجهها ورأسها كما فيمسرحية ترسو دى مولينا التى عنوانها «الغيورة من نفسها» ومسرحية كالدرون دى لاباركا «المختفيوالمحجبة» وكان يحرم على نساء الموريسكيينأن يسرن سافرات فيالطرق العامة ، وكانالقوم يستنكرون ذلك إذ كانوا يرون فى خروج النساء سافرات اتاحة الفرصة للنظر الى وجوههن .

ومن بقايا التأثير العربى جلوس النساء على الأرض وهى عادة ظلت منتشرة فى اسبانيا الى القرن الثامن عشر ، فقد كن يتخذن ما يشبه المنصـة التى لا تكاد ترتفع عن الأرض الا قليلا يغطيها بساط وتسندها مساند ، وانتقلت هذه الصورة الى الأرجنتين مع الاسبان الذين هاجروا اليها ، فعلى هذا النحو كانت تجلس النساء فى أسرة دون دومنجو سارمينتو منأهل القرن التاسع عشر في بلدة سان خوان بالأرجنتين .

وكان سرفنتس يعلم أن هذه الجلسة مما أخذه الاسبان عن المسلمين فصرح بذلك فى قصة دون كيخوته التى سجل فيها عادات عصره وتقاليده .

عبارات التحية وآداب المجتمع :

ثم لاسبيل الى تعليل كثرة ما فى اللغة الاسبانية من عبارات التحية والمجاملة الا بردها الى أصول اسلامية ، وذلك كأن يعرض الذى بيده شىء جديد على آخر ما معه فيقول « هذا لك أو هذه لك » ، ولا وجود لمثل هذه العبارة الا فى اللغة الاسبانية **Esta a su disposicion** ؟ وفى ملحمة السيد أن الملك ألفونسو السادس لما رأى جواد البطل القشتالى أثنى عليه وعلى الفارس الذى يمتطيه فكان جواب السيد أن قال « انى أهبه لمولاى ان شاء » .

ومن الشائع أيضا قولهم **Si Dios quiere** وهى تعريب حرفى لقول المسلم «ان شاء الله» التى يقدم بها كل عمل من الأعمال امتثالا لقوله تعالى : « ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله » . وقد بقى من صور العبارة فى اللغة الاسبانية مايدل على لفظها وذلك **Ojala** ؟ ومما يجرى هذا المجرى ذكر لفظ الجلالة اظهارا للاعجاب بمنظر جميل أو صوت حسن ،

كالذى يفعله جمهور المستمعين في العالم الاسلامى حين يرددون لفظ الجلالة عقب تلاوة آية من آيات الذكر الحكيم من مقرىء حسن الصوت أو فقرة غنائية يصدح بها مغن جميل الصوت فيقول القائل الله الله !.. وقد بقى صدى لفظ الجلالة هذا فى Olé الاسبانية التى يرددها القوم لاظهار الاعجاب بمصراع من مصارعى الثيران وهو يراوغ الثور ، أو براقصة أندلسية تدق الأرض بأقدامها على أنغام العود .

ومما يتصل بالتحيات وعبارات الاعجاب عبارات الدعاء التى يذكر فيها اسم الله ، ومما كان يدعو به المستعربون فى القرن الثانى عشر قولهم « حرسك الله وحفظك » ويذهب العلامة منندث بيدال الى أن هذا الدعاء لم يكن قاصرا على المستعربين ومن فى حكمهم ممن أقاموا فى البيئة الاسلامية بل تجاوزهم الى غيرهم من الاسبان ، فالملك اذا نصب يدعى له به ، والأندلسيون حين يحيى بعضهم بعضا يرددون مثل هذا الدعاء فيما بينهم ، ولا يزال أهل الريف كلما ودع واحد منهم صاحبه قال له **A la paz de Dios** ولا يخفى أنها تكاد تكون ترجمة عن التحية الاسلامية « السلام عليكم » .

وتتضمن الرسائل الاسبانية صيغا تنفرد بها كأن يختم الكاتب رسالته الى أبيه أو من هو أكبر منه بقوله « أقبل أيديكم

الكريمة ، وقد كانت هذه العادة شائعة بين أبناء الريف فى اسبانيا أكثر من شيوعها فى مدريد ، فالابن يقبل يد أبيه ، والصغير يقبل يد الكبير ، وفى كثير من النصوص الاسبانية ما يدل على انتشار هذه العادة بين الأسبان فى القرن السادس عشر، من ذلك رسالة كتبها دون لويس دى ركسينس الى الملك فليب الثانى فى سنة ١٥٦٦ يختمها بقوله : « من صنيعتكم وعبدكم الذى يقبل أقدامكم وأيديكم » . ومما يجرى هـــذا المجرى ما فى المسرح الاسبانى فى القرن السابع عشر من قول القائل يريد أن يبدى شكره وخضوعه للملك «أعطنى قدميك»، وفى قصة دون كيخوته قبل سانشو بانزا قدمى دون دييجو دى ميراندا المرة تلو المرة ،.ولم ير المعلقون على النص فى ذلك ما يخالف العرف والعادة بحيث مروا به دون أن يشيروا بشىء اليه ، وفى ملحمة السيد يروم البطل القشتالى احدى المرات تقبيل قدمى الملك ألفونسو السادس فيأبى الملك ويقول « قبل يدى أما قدمى فلا » .

واذا قيل ان هذه العادة قد لقنها المسلمون عن البيزنطيين أو الفرس فالذى لا شك فيه أن الاسبان المسيحيين قد أخذوها من أهل الأندلس، وقد لاحظ أمير كوكاسترو أن اظهار الخضوع بتقبيل اليد على هذا النحو لا علاقة له اطلاقا بالاقطاع الأوربى، بل هو متأصل فى تاريخ اسبانيا ومستمد من التقاليد العربية فيها

كما فى مثل قول ابن دراج القسطلى من قصيدة :

تخوفنى طول السفار وانه　　بتقبيل كف العامرى جدير

الحياة الاسلامية للملوك والعظماء :

فالحياة الأوربية خلو من هذه التقاليد واسبانيا هي التى انفردت بها من بين سائر البلاد الأوربية بحكم التأثير الاسلامى الذى لم يقتصر على الحياة العامة بل تجاوزها الى الحياة الخاصة للملوك ومن فى حكمهم ، فالفونسو السادس ملك قشتالة ، وقد عاش حقبة من الزمن أثناء منفاه فى بلاط المأمون من بنى ذى النون ملك طليطلة، كان يقلد المسلمين فى كثير من مظاهر حياته، وجعل من بلاطه فيما بعد صورة لبلاط ملك من ملوك المسلمين، وقد كان من تأثير الاسلام أن تسمى بالامبراطور ذى الملتين ، وهما الاسلام والمسيحية .وقال صاحب كتاب الاكتفاء : «وتسمى بالانبراطور وهو بلغتهم أمير المؤمنين ؛ وجعل يكتب فى كتبه الصادرة عنه من الامبراطور ذى الملتين (١) » ولاشك أنه أراد أن ينافس بهذا اللقب لقب الخلافة أو امارة المؤمنين فى الاسلام، فكان أول من لقب بذلك بين الملوك المسيحيين

---

(١) النص نقله Fernandez y Gonzalez فى كتابه الحالة الاجتماعية والسياسية للمدجنين فى قشتالة [Estado social y politico de los mudejares de Castilla ص ٣٩ .

وكان يعاصر ألفونسو رود ريجودياث بطل الملاحم الاسبانية ، واسمه الذى غلب عليه وهو « السيد » عربى كما يدل عليه ظاهر اللفظ ، وقد قضى الشطر الأكبر من حياته فى كنف ملوك الاسلام ، واستخدمه المستعين فى حربه مع عمه القادر ، وذكر ابن بسام فى الذخيرة أنه كان « تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فاذا انتهى الى أخبار المهلب بن أبى صفرة استخفه الطرب وطفق يعجب منها ويتعجب » (١) .

وفى القرن الخامس عشر غزا التأثير الاسلامى بلاط انريك الرابع واقترن ذلك بأزمة دينية كان من مظاهر مادرج المؤرخون على تسميته بالعصر الوسيط ، فكان كبار القوم يتوجهون الى الملك بالحديث فى صورة تنم عن عدم المبالاة به ، وكثيرا ماكانوا يتهمون بأنهم أعداء الكاثوليكية ولا يؤمنون بشىء من عقائدها ، وقد ذكر الرحالة التشيكى البارون دى روزمتال الذى زار قشتالة فى منتصف القرن الخامس عشر ما وقف عليه فيها ، فكان مما تعجب منه أن الناس فى « الميدو » لم يكونوا يركعون ساعة الصلاة بل كانوا يظلون جامدين كأنهم — على حد تعبيره — من الأنعام ! وأسباب التهاون فى الدين كثيرة لكن لاشك أنه كان

---

(١) انظر النص فى كتاب Manuel Malo de Molina : Rodrigo el Campeador الملحق ص ٢٢٨ .

منها وجود أديان ثلاثة في وقت ضعف فيه الايمان بمثل العصر الوسيط مما كان ايذانا بزوال هذا العصر .

ومما جاء في مذكرات البارون وقد دونها سكرتيره ما يلي : « يقيم في برغش الآن كونت ذو شأن دعا الى قصره سيدي ، وهناك حضرت آنسات وسيدات عليهن أفخر الثياب لسنها على نحو ما يلبس المسلمات ثيابهن ، وكن في طعامهن وشرابهن ورقصهن يذهبن أيضا مذهب المسلمات ، وكن يرقصن رقصا رائعا بأسلوب عربي وهن جميعا سمراوات من ذوات العيون السود » .

واذا كان مثل هـذا يقع في برغش التي لم يكن فيها منذ القرن العاشر أحد من المسلمين ، فكيف بالمناطق التي بقيت في حوزة الاسلام الى ما بعد هذه الحقبة ؟ ولقد شهدت قشتالة في منتصف القرن الخامس عشر رخاء وترفا استمد الناس أكثر مظاهره من الحياة الاسلامية التي كانت شائعة في الأندلس ؛ وهذا مجيل لوكاس دي ارانثو ، صفي انريك الرابع يمتطي فرسه على نحو ما كان يفعل البربر من أبناء زناتة ، ويلبس الجبة العربية من الحـرير الموشى وقد تعددت فيها الألوان ؛ وهذا الخبر وهو مروي باللغة الاسبانية قد ورد فيه لفظان من

أصل عربي، فركوب الخيل بأسلوب فرسان زناته دلت عليه لفظة jineta والجبة تدل عليه لفظة aljuba (١)

الحياة الدينية وتأثرها بالاسلام :

وثمة وجه آخر لتأثير الاسلام في اسبانيا المسيحية لا يتمثل كما سبق رأينا في الحياة المدنية وما يتصل بها ، وانما يتجلى في الحياة الدينية التي قد يستبعد أن تكون مظنة للتأثير بعناصر دينية أخرى.

وقد تبلور هذا التأثير في ظهور الفرق الدينية العسكرية Ordenes militares التي احتلت فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر منزلة كبرى في تاريخ اسبانيا باعتبارها قوة عسكرية وسياسية في آن واحد ، كفرق قلعة رباح وسنتياجو والقنطرة وغيرها من الفرق التي استبانت فيها المعالم الأولى لجيش الملكين الكاثوليكيين فرناندو وازابيل، وكان مولدها في أحضان تدين روحي وحربي ثم لم تلبث أن تحولت منذ القرن الرابع عشر الى نظام تغلب عليه الصبغة السياسية أكثر مما تغلب الصبغة الدينية ، وكفلت لها أملاكها الشاسعة سلطانا تضاءل بجانبه سلطان الملكية .

Amèrico Castro : Espana en su historia p. 94 (١).

وتاريخ هذه الفرق رغم وجود كثير من الوثائق المتعلقة بها يكتنفه الغموض، أما عن أصلها، فالشائع أنها كانت بمثابة الرد على الفرق الفرنسية التى استقرت فى اسبانيا في القرن الثانى عشر، غير أن المستشرقين الذين بحثوا فى أصلها ذهبوا الى أنه لا سبيل الى التماس أشباه لها الا فى العالم الاسلامى وفى المسلم الذى التقت فى كيانه عناصر المتصوف مع عناصر المحارب؟ ولم يكن من قبيل الصدفة أن تولد هذه الفرق فى بلاد تعد تخوما وحدودا للاسلام كفلسطين واسبانيا ، ففى فلسطين نشأت الفرق التى كانت تتولى حماية الحجاج الى القدس أو التى ترعى الضعفاء والمرضى ممن يصلون اليها .

وهذا النظام عرفه المسلون منذ قرون عدة ، فكثير من المتصوفة كان جل همهم من سياحاتهم فى أقطار العالم الاسلامى خدمة الفقراء ورعاية المرضى والمحتاجين والسهر عليهم، وكانت أعمال البر من القربات الصالحة التى يبتغون بها الثواب والأجر من الله ، وكذلك أيضا كانت طوائف « المرابطين » فى الثغور الاسلامية ، فقد جمعوا الى الزهد فى الدنيا وملذاتها والعكوف على العبادة نزعة الجهاد فى سبيل الله ، والرباط فى مواضع الخطر من الاسلام ، وكان لأهل هذه الثغور منزلة بين عامة المسلمين يكرمونهم لمكانهم من الثغر وما يلقون فيه من مدافعة

أعداء الاسـلام ، ولقد كان المسلم يقصـد الى ثغر من الثغور الاسلامية ، يقيم فيه ويرابط ويتهيأ للغزو فى كل ساعة يلتمس بذلك الآجر والثواب امتثالا لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ولا يمكن أن يتصور المرء من وجهة النظر المسيحية البحتة كون الشخص يجمع بين الرياضة الروحية والتعلق بالجهاد ، فالكنيسة لم تكن تنظر بعين الرضى الى من يسلم نفسه لحياة الزهد ويحمل السيف في يده ، أما الاسلام فالجهاد فريضة فيه « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » ، وكان من السنن الاسلامية الحميدة أن يخرج الزهاد والعباد فى طليعة الجيوش الاسلامية يتقربون الى الله بذلك ، ومنهم من كان يدعو الله وهو فى الكعبة أن يرزقه الشهادة ليفوز بنعيم الآخرة .

والرباط فى الاسلام عنصر أساسي فى الجهاد عرفه أهل الأندلس والمغرب، وهى بلاد تكثر فيها الثغور الاسلامية قبل أن تعرفه الفرق العسكرية المسيحية بقرون عدة ، وفى اسبانيا بالذات تكثر الأماكن التى من أسمائها Rabita و Rabida

ولفظ رباط العربى دخـل اللغة الاسـبانية ، ومنه اشـتقت Robato و arrebatar و arrobda . وكلها تدور حول معنى المرابطة للقتال ، ووجود مثل هذه الألفاظ فى اللغة الاسبانية شاهد على شيوع مدلولها بين أبناء شبه الجزيرة الايبيرية

من المسيحيين ؟ فظهور الفرق العسكرية منذ القرن الثانى عشر أمر طبيعى فى اسبانيا التى كانت فى تلك الحقبة قد ارتوت من نظم الاسلام وأشربت روحه ، وليس عجبا أن يقص الشاعر فى ملحمة السيد ويرجع تاريخها الى سنة ١٩٤٠ كيف أن المطران دون خيروم . وهو شخصية تاريخية وليست أسطورية كشخصية تورين فى ملحمة رولان الفرنسية ، يصارع أسدا وهو فى طليعة المسيحيين ، وظهور رجل الدين فى مظهر المقاتل سواء فى اسبانيا أو فرنسا مما لا يمكن تفسيره الا فى ضوء الاسلام .

واذا كان تحمس رجال الدين المسيحى من الفرنسيين قد خفت حدته بعد الحرب الصليبية فان جذوته لم تنطفىء بين الرهبان والقسيسين الاسبان ، ففى سنة ١٥٦٨ لما شاع أن المسلمين نهضوا للثورة خرج القسس والرهبان من دير سان فرنسسكو وتقدموا الصفوف يحملون السلاح ، ولما تحرج الموقف بعد ذلك فى درقال بجبال البشرات نهض ثمانية من رجال الدين فيهم أربعة من القسيسين بدير سان فرنسسكو وأربعة من الجزويت وقالوا انهم يريدون أن يموتوا من أجل المسيح لأن الجنود لا تطيب أنفسهم بالقتال ولا يجرءون عليه غير أن القائد جونثا لودى الكانترا لم يرض بذلك ولم يوافقهم عليه (١) .

---

(١) انظر Americo Castro : Espana en su historia pp. 189 y. sig.

الحرب المقدسة :

ويسوقنا الحديث عن الفرق العسكرية الى مسألة أخرى أخطر شأنا تتصل بالحرب المقدسة عند المسيحيين ، اذ صارت الباب المفضى الى الجنة والسبيل المؤدية الى المجد فى الآخرة ، وهو معنى لم يكن له وجود فى المسيحية الأولى ، ولما كان ألفونسو الثامن يقاتل جيوش الموحدين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢ ، وقد مرت به لحظات خاف فيها من الهزيمة وخشى على حياته تقدم اليه المطران دون ردريجو وكان مع الملك فى ساحة القتال وقال له : «ياسيدى ان كان مصيرنا الموت فمآلنا معكم الى الجنة» وفى رواية وردت فى مدونة ألفونس الحكيم أنه قال « ياسيدى سيأتينا تاج من النصر ان أراد الله لنا ذلك » ومما جاء فيها أيضا أنه لما فك الحصار الذى كان شدده المسلمون على حصن مارتوس Martos نهض اليه كثير من فرسان الفونسو ولقوا حتفهم وهم يهجمون عليه ، وتكلم فى القوم دييجو بريث دى فارجاس فكان مما قاله : « اذا نحن لم نستطع أن نمضى ونموت اليوم فستنجوا أرواحنا وسيكتب لنا المجد فى الجنة » ويشير دون خوان مانويل فى كتابه « النظم » الى الشهادة والشهداء فيذكر أن الذى يموت من المسيحيين فى ساحة القتال مؤديا بذلك فروض الكنيسة فهو شهيد ، والشهادة تمحو السيئات ، ويقول فى موضع آخر : ومن كان آثما ومات وهو يقاتل المسلمين

فلينتظر الأمل العظيم فى النجاة مما لا يتهيأ مثله للعصاة الذين يموتون حتف أنوفهم فى غير ساحة القتال (١) ، ولا حاجة بنا الى القول بأن هذه النصوص وأمثالها صدى لأفكار اسلامية نراها مبثوثة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار السلف الصالح ، ففى التنزيل « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . « قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين » . « وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة » ، « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم » ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة يخرج وتارة يبعث غيره حتى قال « وددت ألا تخرج سرية أو جيش الا وأنا معهم ولكن لا أجد ما أحملهم ولا تطيب أنفسهم بالتخلف عنى ، ولوددت أن أقاتل فى سبيل الله تعالى حتى أقتل ثم أحيا ثم أقتل » وكان ملوك الأندلس فى أيام سلطان الاسلام لا يكفون عن الغزو ، ومامنهم الا من كان له فى أرض العدو الوقائع المشهودة ، ومما يذكره المؤرخون للمنصور بن أبى عامر أنه ردد الغزو بنفسه الى دار الحرب فغزا ستا وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه .

فالجهاد عند المسلمين قد أكسب الحرب عند مقاتليهم من الأسبان المسيحيين معنى دينيا جديدا ردده المطران دون ردريجو

---

(١) Americo Castro: Espana en su historia, p. 204-206.

وألفونسو الحكيم وابن أخيه دون خوان مانويل ، فكما استمد القوم من الاسلام فكرة الرباط والمرابطين التى تمثلت فى الفرق المسيحية تأثروا بالاسلام فى توجيه معنى الحرب وآثراها فى المقاتلين بحيث جعلوا من الشهادة كما فى الاسلام بابا الى الجنة وسبيلا الى عفو الله ورضوانه .

الفصل الخامس

التأثير الثقافى للاسلام فى إسبانيا

لعل أول من آشار الى ما للتراث الاسلامى من أثر فى أوربا هو الأب الجزويتى جوان أندريه سنة ١٧٨٢ فى كتابه «تاريخ الأدب المقارن» الذى جعل عنوانه «أصل الآداب وتقدمها والوضع الحالى لها»، وقد انتهى على قلة ما لديه من مراجع وخاصة العربية منها الى أن «توطيد الدراسات الجيدة فى أوربا يرجع الفضل فيه الى الثقافة العربية فأوربا كانت بازاء شعب ضرب بسهم وافر فى التقدم الحضارى بالنسبة لشعوب أخرى متأخرة جدا فى الثقافة، وكان طبيعيا أن يذهب به الظن الى آن الحضارة العربية لابد أن تكون قد ساهمت بعناصرها الأدبية فى التراث الأوربى، وفى هـذا قال: بينما كانت المدارس المسيحية منهمكة فى تعليم الأناشيد الكنسية، كان العرب يوفدون الوفود بحثا عن الكتب اليونانية واللاتينية ويقيمون المراصـد لتعليم الفلك، ويكثرون من الرحـلات للتزود من التـاريخ الطبيعى، وينشئون المدارس لتعليم جميع العلوم، ثم ذكر بعدئذ ترجمات العرب للكتب الفارسية والهندية والمصرية واليونانية

بنوع خاص مبينا ما للترجمات اليونانية من أثر فى تقدم الدراسات المدرسية •

ويذهب الآب آندريه الى أن ازدهار الثقافة العلمية والأدبية كالطب والرياضيات والعلوم الطبيعية يرجع الفضل فيه الى العرب ، ويدلل على ذلك بأن يذكر أسماء جربرتو وكمبانو دينوفار ، واديلاردو دى باث وموريلاى وألفونسو الحكيم باعتبارهم ممثلين للمعرفة العربية فى آوربا ، ومما ذكره أن روجر بيكون انتفع بعلم العرب ، وليوناردو وهو من أهل بيزا نقل الجبر والأرقام العربية ، الى أوربا ، وجربرتو أخذ من اسبانيا علم الحساب العربى ، وذهب الى آن جميع المعارف النافعة فى الطب والكيمياء التى انتشرت فى آوربا انما استقاها الأوربيون من الكتب والمدارس العربية ، ونبه الى أن لوليو يدين بالكثير للثقافة الاسلامية ، واستفاد أمثال جلبرتو وجوان دى جود سدين وفابريسيوا كوابنديتتى وغيرهم من الكتب العربية فى الطب •

وأخذ ديكارت من العرب بعض المذاهب الجدلية ، والى علم العرب يرجع الفضل فيما اكتشفه كبلر ، ومن المشكلات اللاهوتية التى تعرض لها القديس توما ما حله على ضوء المذاهب العربية ثم قال : ولو لم يكن للعرب من فضل الا آنهم كانوا خزنة للعلوم التى تركها الأوربيون ثم نقلوها الينا بعد ذلك لكفاهم

ذلك فخرا ولاستحقوا عليه مظاهر الشكر والاقرار بالجميل من الباحثين المحدثين » .

وخص اسبانيا بعد ذلك بالذكر فأشار الى وجود لغتين فى اسبانيا الاسلامية وهما العربية والرومانسية ، ولم يفته أن يذكر ماأبداه الفارو من أسى على ماآل اليه حال أبناء جلدته من ولعهم بالثقافة العربية وهجرهم للغة اللاتينية وآدابها ، ونوه بما تضمه كاتدرائية طليطلة من مئات الوثائق العربية التى كتبها المسيحيون؛ وكان مما ذهب اليه أيضا أن الشعر الاسبانى ولد محاكاة للشعر العربى ، اذ كان مقتضى الاتصال المستمر بين المسلمين والمسيحيين محاكاة الأدنى للأعلى ، ثم ان الاتصال المستمر بين الفرنسيين والاسبان المسلمون منهم والمسيحيون ورحلات شعراء التروبادور أفضى به الى توكيد أن الشعر البروفنسى وليد الشعر العربى قبل أن يكون وليدا للشعر اللاتينى واليونانى ، لأن هذا الشعر لم يكن معروفا للقوم وقتئذ فى حين أن الشعر العربى كان قريبا منهم معروفا لديهم ، ومن رأيه أن الشعراء أخذوا من الشعر العربى القافية والصورة ، ويتجلى ذلك بنوع خاص فى الشعر البروفنسى الذى أثر بدوره فى الشعر الغنائى الايطالى ، ويذهب أيضا الى أن موسيقى التروبادور وموسيقى ألفونسو الحكيم عربية الأصل والنشأة ، ومثل ذلك يمكن أن يقال فيما يختص بالقصص الخرافى ، والأقصوصة والقصة

الطويلة ، وأشـار الى أن ليبيف أثبت أن توربين الزائف من خلق مؤلف اسبانى وهو يعد أبا لقصص الفروسية التى ظهرت بعدئذ (١) .

وهـذه الآراء العامة التى ساقها الأب الجزويتى وان كان يعوزها وقت اثارتها ثبوتها بالأدلة القاطعة والبراهين الا أنها كانت بمثابة نقطة البدء فى الأبحاث التى اتصلت بعد ذلك طوال القـرن التـاسع عشر والقرن العشرين فى حضارة الأندلس باعتبارها حلقة الاتصال بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحى، وكان لأبحاث المستشرق الهولنـدى دوزى وأبحاث المدرسة الاسبانية التى من أعلامها كوديره وريبرا وآسين بلاسـيوس وغرسيه غومس وأبحاث ليفي بروفنسال أثر فى تجليه جوانب الحضارة الأندلسية وابراز معالمها والتنويه بمدلولها الانساني وبيان أوجه تأثيرها ومظاهره .

---

(١) انظر **A. Gonzalez Palencia : Moros y Cristianos, p. 3/4.**

اللغة العربية وتأثيرها فى اللغة الأسبانية

وأول هذه المظاهر ما كان للغة العربية من تأثير فى اللغة الاسبانية تجلى فى كثير من الألفاظ التى تعد أوعية للأفكار وأدوات للحضارة ، ووثائق حية تشهد بالعشرة التى التقى فى ظلالها المسلمون والمسيحيون ، وتحدد مدلول الظواهر الاجتماعية وتكشف عن معالم الحياة العامة والخاصة .

فالألفاظ العربية لم تقتصر على العلوم الاسلامية التى ورثتها اسبانيا عن العرب كالفلسفة واللاهوت والطب والرياضة والفلك والهندسة والموسيقى وما اليها وانما كانت عناصر وأمارات تشير الى نظم ادارية وقضائية وتقاليد فنية وعسكرية ، وأساليب فى التجارة والصناعة والزراعة وما اليها مما يدخل فى الكيان الاجتماعى والسياسى للبيئة العامة .

ولم تكن اسبانيا لتغفل عن هذه الحقيقة فى أبحاثها بل أولت هذه العروبة اللغوية من العناية ما هو جدير بها منذ القرن العاشر الذى كان من ثمراته المعجم اللاتينى العربى Glossariumlatino arabicum ، وتلاه فى القرن الثالث عشر Vocabulista inarabico ويعزى الى المستشرق القطلانى فراى بدور ريموندو مارتن ،

لكن أهل الدمى فاق هذين المعجمين المعجم الذى ألفه فراى بدرو الكالا نحو سنة ١٥٠٠ ، الذى عنوانه Vocabulista arauigo وقد جمع فيه اللهجة العربية التى كان يتكلم بها أهل غرناطة لعهده ، ثم كثر تأليف المعاجم التى من هذا القبيل فى الإسبانية والبرتغالية والفرنسية ، ومن أشملها كتاب انجلمان الذى توسع فيه دوزى وهو يضم جملة صالحة من الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية .

وإن رحلة فى عالم هذه الألفاظ لكفيلة بأن يقف منها المرء على تغلغل العربية فى مناطق الحياة بشبه الجزيرة الإيبرية .

ويظهر وجه العروبة فى أسماء الأنهار والمواضع والبقاع والبلاد ، فمن الأنهار Guadalquivir الوادى الكبير ، Guadlaviar وادى الأبيار ، و Belcayde أبو القائد ، وأسماء المواضع أكثر من أن تحصر وكلها تذكر بالعصر العربى ، فمن القرى والمدن Almodovar المدور ، و Albacete البسيط ، و Alcazar القصر ، و Calatrava قلعة رباح ، و Calatayud قلعة أيوب ، و Medinaceli مدينة سالم ، و Alcira الجزيرة وهى جزيرة شقر ، و Aldovera الدويرة ، و Alejar الحجار ، و Algarbe الغرب ، و Algarra الغراء ، و Alfoz الحوز ، و Almàsera المعصرة ، و Almazcara المعسكرة ، و Alqueria

القرية ، و Jerica ضيعة ، و Duya الربض ، و Arrabal
شارقة ، و Jete شط ، و Mazmorra مطمورة ، و Meala
محلة ، و Medina مدينة ، و Ruzafa رصافة ، و Taiba طيبة،
و Zalamea سلمية ، و Zocodover سوق الدواب ، و Zubia
زاوية ، و Zuera زهيرة ، و Zucayna سكينة .

ولا تزال تسمع فى أنحاء إسبانيا الألفاظ التى تتصل بالرى
والزراعة فالقوم يقولون : Azud السد ، و Acequia الساقية ،
و Albercas البرك ، Acena السانية ، وفى البساتين Arriate
الرياض ، وهم يؤدون لقاء رى أرضيهم ما يسمونه Alfarade
الفرضة ، وفى الحقول يستخدمون Noria النورية أو يملأون
Aljibe الجب بالماء للانتفاع به وقت الجفاف .

ولو أن إنسانا دخل بستانا من البساتين لرأى فيه من الأزهار
ما يذكره بالعصر العربى مثل : Adelfas الدفلى ، و Azucenas
السوسانة ، و Jazmines الياسمين ، و Arrayan الريحان ،
و Albahaca الحبقة ، و Alhucema الخزامى .

ومن الفواكه Alberchigos الفرسق ، و Albaricoques
البرقوق ، و Azerolas الزعرورة ، ومن البقول والخضر
Berenjenas الباذنجان ، و Arroz الأرز ، و Alubias اللوبياء،
ويضاف إلى الأطعمة Azafran الزعفران ، و Ajedrea

الشـطرية ، ويطعم القـــوم خيولهم بـ Alfalfa النصفـه ، و Algarrobas الخروب ، و Altramuces الترمس .

وتقع عين المرء فى أسانيا على Aldea الضيعة أو Alqüeria القرية تحيط بها أشجار تعرف بـ Almeces الميس ، ويجلس المرء ليستريح فى Zagunan السطوان ، عند مدخـل البيت ، ويرى القوم وهم يزنون ما معهم بـ Quintales القنطار ، أو Adarmes الدراهم ، و Quilates القيراط ويقيسون بـ Azumbre الثمن و Fanega الفنيقة ، و Cahiz أو Ca z القفيز ، ويسمعهم وهم يقدمون سلعهم ويتوخون Alboroque البركة فى تعاملهم وهم قادمـــون من Almacen المخـزن أو Bazar بازار أو Alhondiga الفندق ، ثم يمضون إلى Almudi المودى أو إلى Alcaiceria القيسرية أو Alfori و Alhuri الهرى ، ثم يشهدون Almoneda المناداة ويعـبرون بـ Azogue السوق ويعلمون أن السعر إذا ارتفع فـرد ذلك إلى Aduanas الديوان (الجمـارك) بحيث لم يبق لهم الن الربح Maravédi مرابطى .

ويدق النساء التوابل فى Almirez المهراس ، ويصنعن أصنافا يختم بهــا الطعام مثل Almojabanas المجبنة ، و Arrope الرب و Alfeñique الفانيد ، وقد تقدم إلى القوم Café القهوة محـلاة بـ Azucar الســكر ، ومنهم من يتناول قليــلا من Alcohol الـكحول .

وفى الدار تفرش الأرض بـ Alfombra الحصرة ، وينام رب البيت على Marfega الرقة ، ويتوسد Almohada المخـــدة ، ويتخذ Alifafe الجفاف ، ويغلق الباب بـ Aldoba الضبة .

وأهل البلدة منهم Albanil البـــانى ، وهو يبنى Alcoba القبــــة ، و Alcazar القصر ، ومنهم Albeitar البيـطر ، وAlbardero صانع البردعة ، و Alfayate الخياط ، Alfageme الحجام ، وAlhamel الحمال ، وAlmocrebe للمكارى ، وتزخرف الحجرات بـ Azulejos الزليج ، ويضرب القوم Adufes الدف ، وTambore الطنبور ، وAtabales الطبل ، و Laudes العود ، وينفخون فى Alboques البوق ، ويعزفون على Guitarras القيثارة ، ويرقصون Zambra الزمرة ، ويستعمل الصيادون Jabega الشبكة ، وAlmadraba للضربة ، و Almadia للعدية .

وقد يلبس الشيوخ بالقرية Chupa الجبة وثياباً مصنوعة من Algodon القطن كما يلبسون Albornos البرنس ، و Zaragueles السراويل ، و Alifafes الخفاف .

ومن الوظائف والرتب العسكرية الإسبانية Alcaide القائد ، و Alferez الفارس ، و Adalid الدليل ، و Almogaver المغاور ، ويستعملون ألفاظ Atalayas الطلائع ، و Rebatos الرباطات ، و Acemila الزاملة .

الشعر العربي البروفنسي

لعل من أروع مظاهر التأثير العربي تأثير الأزجال والموشحات في الشعر الأوربي ، وقد شغلت هذه القضية أذهان المستعربين وأصحاب الدراسات الرومانية على السواء لما لهما من صلة بأولوية الشعر الغنائي الأوربي .

وقد أشرنا عند الكلام على الموشحات أن أصلها في الأغنية الشعبية التي كانت شائعة في الأندلس وتبلورت في الخرجة التي تشتمل على ألفاظ باللغة الرومانسية ، وعلى هذه الخرجة كان الوشاح يبني الموشحة ، وأهمية هذه الأغنية أنها تعد أول مظهر للشعر الاسباني أو الأوربي الذي كانت تؤرخ أوليته بملحمة السيد (١١٤٠) ، ولكن بالوقوف على هذه الأغنية تقدم تاريخه قرنا من الزمان ، وصارت الخرجات المكتوبة بلغة رومانسية أول شعر غنائي أوربي .

وكما أثرت هذه الأغنية في الشعر العربي فأفضت الى الموشحة وما تطور عنها من زجل فان هذا الشعر كان مظنة للتأثير في الشعر البروفنسي ، وكان المستعرب الاسباني خليان ربيرا أول من لمح هذا التأثير وأشار اليه فيما كتبه عن ابن قزمان وديوانه (١) .

(١) انظر Julian Ribera : Disor. y Opusc. p. 57

غير أن هـذه النظرية التى لم تثبت ثبوتا يقينا كانت مثارا للجدل بين الباحثين ، فمال بعضهم الى تأييدها وأنكرها البعض الآخر ، وممن آنكروها البرتغالى رودريجس لابا ، فقد ذهب فى كتابه « آصول الشعر الغنائى فى البرتغال » الى أن التركيب الشعرى فى الزجل قد عرفته آوروبا قبل ابن قزمان ، فله نظائره فى الشعر اللاتينى الذى يرجع الى القرن الحادى عشر •

وممن يذهبون مذهبا وسطا بين المؤيدين والمعارضين الألمانى ابل والفرنسى جانروى ، فهما اذ يسلمان باحتمال وجود التأثير العربى فى الشعر البروفنسى لا يقطعان به ولا يؤكدانه ، ويعرض جانروى لحجة رودريجس لابا فيذهب الى أن التركيب الذى ظهر فى الشعر البروفنسى ، وهو يشبه التركيب الزجلى ، من البساطة بحيث يمكن أن يمت بصلة الى الشعر اللاتينى فى الوسيط •

ويتصدى العلامة الأسبانى منندث بيدال ، وهو من أشد الباحثين تحمسا لنظرية التأثير العربى ، للدفاع عنهـا ونقض حجج خصومها وتفنيد دعاويهم (١) ، فيذهب الى أن أول شاعر شعبى بروفنسى نعلمه ، وهو جيلرمو التاسع دوق آكتانيا ويعد فى الوقت ذاته أول شاعر نعرفه فى لغات الغرب جميعا ، له خمس قطع دونت على ما يعتقد بعـد عام ١١٠٢ من بين قطعه

---

(١) R. Menendez Pidal : Poesia arabe y Poesiá europea p 53.

الشعرية التى حفظت عنه وتبلغ احدى عشر ، وهي تتألف من آدوار على نحو ما فى الزجل بأجزائه الثلاثة المتفقة القوافى يتلوها سمط أو أسماط متفقة القوافى فى جميع الأدوار ؟ ومثل هذا نجده عند شعراء آخرين أقدم منه عهدا مثل سركمون ومركبرو فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، غير أن هـذا التركيب لا يلبث أن يختفى عند المتأخرين من الشعراء ولا يبقى حيا الا فى الغناء الشعبى حيث يستعمل بكثرة سواء فى فرنسا أم فى ايطاليا فى الرقص الشعبى والأغانى الدينية للرهبان الفرنسيسكان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر وفى أغانى الكرنفالات بفلورنسه فى القرن الخامس عشر .

أما فى اسبانيا فقد ظل هذا النوع حيا على مر العصور ، فله نظائره فيمانقله ألفونسوالحكيم ، وفى‌ديوان الارثبرست دى‌هيتا Areipréste de Hita المعروف بـ El libro de buen amor فى القرن الرابع عشر ، وقد ذكر فى ديوانه أنه كان ينظم شعرا تغنيه مغنيات مسلمات مـع الموسـيقى ، وكذلك نجده عنـد فلياسندينو وخوان دلنثيما فى‌القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر ؟ ويقرر مننـدث بيدال أن الذين يجحدون التأثير العربى فى شأن أمر واسع الانتشار باعتباره نوعا من الغناء الذى كان يتخـذ فى ضروب الرقص وغيره من ألوان المبـاهج الشعبية يخيل اليهم أن ذلك التركيب مشتق من الأناشيد الدينية فى

الكنائس بفرنسا لأنها تضم أيضا ثلاثة أجزاء متفقة القافية ، ويغفل هؤلاء أن هذه الأغانى الكنسية المعروفة لاتنتهى أجزاؤها الثلاثة المقفاة بسمط أو أسماط ولكنها تنتهى بمركز ، والبون شاسع بين السمط والمركز .

هذا الى أن الذين يذهبون الى توكيد الأصل اللاتينى الكنسى لشتى ضروب الشعر فى القرون الوسطى لم يعثروا على مثال واحد للغناء اللاتينى فى الصور الست المختلفة للدور ويشترك فيها الزجل العربى والأغنيــة الزجلية للشعوب اللاتينية ، والاتفاق فى هذه الصور الست دليل لا سبيل الى انكاره على أنهما من أصل مشترك ؛ ولمـا كان الزجل قد ظهر قبل شعر أول شاعر معــروف بقرنين من الزمان فلا شك أن الأغنيــة اللاتينية الحديثة مشتقة من الأغنية العربية الأندلسية .

وليس عجيبا أن تــكون الأغانى الدينية كأناشيد ألفونسو الحكيم مشتقة من الغناء العربى الأندلسى بعد الذى ثبت من اتصال الغناء العربى بالغناء اللاتينى ، فمن بين الصور التفسيرية التى تمثل العازفين على مختلف الآلات الموسيقية صورة فى مخطوطة تمثل شاعرا نصرانيا وآخر مسلما يعزفان على العود سويا ويغنيان معا ؛ ولقد بلغ من تغلغل الغناء العربى فى البيئات المسيحية أن

مجمع القساوسة الذى انعقد فى بلد الوليد سنة ١٣٢٢ شكا من آن المسيحيين يدخلون معهم فى الكنائس المسلمين واليهود يغنون ويعزفون فى المحافل الدينية ، وأنذر من يفعلون ذلك بالعقاب الشديد واخراجهم من حظيرة الكنيسة وحرمانهم من الدفن الكنسى •

أما فى خارج الكنيسة فلم يكن للتأثير العربى حدود ، بل كان شائعا عاما فى كل مكان ، ومنذ القرن العاشر والصحبة بين المغنيين من المسلمين ورفاقهم من المغنين المسيحيين مضرب الأمثال ، وفى سنة ١٢٩٣ بلغ عدد الشعراء الذين كانت تجرى عليهم الأرزاق فى بلاط سانشو الرابع ملك قشتالة الذى يعرف بين المؤرخين العرب بشانجة ثلاثة عشر شاعرا من المسلمين واثنى عشر من المسيحيين ، وكان بدرو الرابع ملك أرغون ويسميه العرب بطره يتخذ فى قصره شعراء مسلمين من شباطة وكانت بها مدرسة ذائعة الصيت ، والشواهد فى هذا الباب أيضا كثيرة فى القرن الخامس عشر بحيث ان تأثير الغناء العربى فى الغناء المسيحى مما لا يمكن جحده وانكاره • ولا يقتصر الباحث الاسبانى فى بيان التأثير العربى للشعر على تركيبه الزجلى وحده بل يتجاوزه الى مضمون هذا الشعر ومدلوله ، فليحظ ما بين الشعرين من تماثل فى الأفكار العامة كفكرة الحب الذى يخشع فيه العاشق ويتضرع لمحبوبه ، فهى تتراءى

فى الشعر البروفنسى وبها كثير من الملامح التى عرفت بها فى الشعر العربى ٠

وقد ذهب الظن بخصوص النظرية العربية الى أن الشعر العربى خلو من معانى الحب الذى هو على هذا النحو مما يظهر مثاله فى شعر شعراء العصر التروبادورى ، ولكن منندث بيدال يدحض هذه الدعوى بأن مثل هذه العواطف أصيلة فى الشعر الأندلسى سواء منه ما جاء فى لغة فصيحة أو فى لغة ملحونة ، واذا كان قد وجد شىء من ذلك بين شعراء العصر التروبادوى فانما كان ثمرة للتأثير العربى ، فحين ظهر فى شعرهم ابان القرن الثانى عشر تمجيد المرأة واجلالها كانت هذه المعانى أشبه شىء بالبدعة المستحدثة التى لم يكن لها سوابق لا فى الصور القديمة المعروفة منـــذ أرسطاليس الى أوفـديو ولا فى تفـكير اللاهوتيين والفلاسفة الذين لم يكونوا يرون فى المرأة الا كائنا خلق بعد الرجل وللرجل وأس المعصية التىاقترفها آدم ، واذاكان ادوارد فشلر وكارل فسلر يجشمان أنفسهما العناء فى سبيل تلمس الروابط البعيدة لبيان كيف وصـــل الأمر الى اجلال المرأة فى بلاط أمراء بروفنسيه فانهماينسيان أن فرنسا الجنوبية هذه كانت أكثر من غيرها استعدادا لتصبح المجال المباشر لتلقى تأثير الشعر العربى الأندلسى واشعاعه ٠

ومن هـذا الاحتجاج الذى يقوم على بيان ما بين الشعـر

البروفنسي والشعر العربى من تماثل فى التركيب ، وفى المضمون تتألف النظرية القائلة بالتأثير العربى فى الشعر الأوربى وهى نظرية لها اليوم شأنها بين الباحثين .

وهكذا كتب للأغنية الشعبية الأندلسية حياة متطاولة ، فقد تولدت منها فى مطلع القرن العاشر الموشحات ثم الأزجال التى أعانت على نشأة الشعر الغنائى البروفنسى فى أوائل القرن الثانى عشر .

الفن القصصى

كانت القصة مجالا من مجالات التأثير العربى فى اسبانيا ثم أوربا ، وهى بطبيعتها من أكثر المظاهر الأدبية استعدادا للتنقل من بيئة الى بيئة ومن شعب الى شعب ، وقد ورثت العربية عن بلاد الشرق القديم كالهند وفارس جملة صالحة من الأقاصيص التى تشتمل على الحكمة والموعظة ، وانتقلت منها الى الآداب المسيحية فى القرون الوسطى ، وكانت هذه الحقيقة عاملا حاسما فى حياة الأقصوصة الأوربية .

والحكاية أو الخرافة اتخذت لتكون مادة للتعاليم الأخلاقية بين مختلف الأمم اذ سكبت فيها العبقرية الشعبية خلاصة تجاربها فى الحياة ، وقد اصطبغت هـذه الأقاصيص فى الشرق بصبغة دينية بحيث كانت تروى لتلتمس منها العبرة لكنها كانت تتباين بتباين العقليات ، وتستمد من كل بيئة تمر بها عناصر جديدة لا تلبث أن تمدها بحياة جديدة ، وعلى هذا الوجه انتقلت من الهند البوذية وفارس المجوسية الى الشرق الاسلامى واستوعبها الأدب العربى ضمن ما استوعبه من ثقافات ، ثم تلقاها الغرب الأوروبى فيما انتهى اليه من تراث ؛ وفى الأدب الاسبانى اللاتينى

توجد هجرة هذه الأقاصيص فى أنحاء أوربا بحيث كانت اسبانيا فى هذا المجال كما كانت فى غيره همزة الوصــل بين العالمين الثقافيين والجسر الذى جمع بينهما .

القصة الشرقية :

وأول من فتح باب هذه الهجرة يهودى أرغونى تنصر فى سنة ١١٠٦ فى وشقة وتسمى باسم بدرو ألفونسو لأنه تحوله الى النصرانية كان فى عيد القديس بطرس San Pedro وشهد تعميده ألفونسو الأول ملك أرغون ، وقد ألف مجموعة تضم ثلاثين أقصوصة من أصل شرقى جمعها وترجمها الى اللغة اللاتينية وجعل عنوانها « Descipline Clericales » أى « أدب العلماء » ، كأنه أراد بذلك أن يستدرك أنها ليست موجهة الى عامة الناس ، ويقول فى المقدمة انه جمع حكما للفلاسفة وأمثالا عربية وأحاديث خرافية على ألسنة الطير والحيوان ، كل أولئك ليذكر الرجل العالم فى سمر عذب ما قد نسيه ، ويتزود بالأدب والمعرفة .

ولم يخف ما للأمثال والخرافات من أصــول عربيــة ردد ذكرها فى أكثر من موضع من كتابه ، اذ كان يعلم أن الثقافة العربية وهى يومئذ فى أوجها قريبة من القلوب ولا تنفر منها النفوس .

والاطار العام الذى تجرى فيه القصص قوامه نصائح يسديها أب يشعر بدنو أجله الى ابنــه ليعظه ، والحكم والمواعظ التى يلقيها الآب ويوصف بأنه عربى عليهــا مسحة عربية ؛ وفى بعض قصصه ذكر للقمان الحكيم ، وقصة فيهــا حديث عن خصيان أحد الملوك ، وأخرى عن رجلين من أهل المدن ومعهما قروى يذهبون الى مكة ، وقصة فيها مثال الصداقة الوافية التى تظل حتى الموت .

والمثــال لا نجــده فى دامون وبثياس وهما كلاسيكيان فى الآداب القديمة بل فى تاجر بغدادى وآخر مصرى ؛ وعلاقة مصر بالغرب الاسلامى تتجلى فى أن بطل أحد القصص اسبانى نراه وقد تهيأ للحج الى مكة يترك ثروته فى مصر حيث تجرى بقية حوادث القصة ، واذا كانت تنسب بعض الحكم والأمثال الى حكماء الاغريق فان هؤلاء يعرفهم العرب كسقراط ، وقد تشابه مع ديوجنيس ، وأرسطاليس فى رسالته الى الاسكندر، ولا يستثنى من ذلك كله الا الحديث عن رجل من سادة القوم يذهب الى روما للصلاة ، ومع ذلك نجد بدرو ألفونسو يحاول أن يضفى على الذوق العربى صورة اسلامية كالحج الى مكة .

يقول بدرو ألفونسو ويدعى « خادم المسيح » انه ألف هذا الكتاب ، وهو من أصل اسلامى واضح ، حتى يعرف المرء كيف يتقى الشر فى هذا العالم وينال المثوبة فى العالم الآخر ، ولكنه

يرى فى نهاية مقدمته أنه لا بد أن يوجه هـذا الاحتجاج للتحذير ، اذ يقول : اذا تصفح أحد هذه الرسالة ونظر اليها نظرة سطحية ، ورأى فيها ما لايجدر ذكره فأنا أوصيه بأن يعيد قراءتها بعين أكثر نفاذا المرة بعد المرة حتى يقف على ما فى العقيدة الكاثوليكية من كمال ٠

والواقع أن كثيرا من القصص بعيدة عن أن تستوحى مبدأ خلقا ايجابيا فأكبر الأقسـام تؤلفه ست قصص سيقت لبيان ما عليـه النساء من شر وغدر ، وهو موضوع اقتبسه الأدب القصصى العـربى من الأدب الهندى ، ويكثر بصفة خاصة فى القصص التى تروى كيد النساء ؛ ويلجأ بدرو الفونسو فى مثل هذه الموضوعات التى قلما توجد فى الآداب المسيحية الى صبغها بالصبغة الأخلاقية وتبريرها بشتى الحجج ، من ذلك ما يذكره فى شأن المرأة من أنه اذا كان سليمان قد لعن المرأة الخبيثة فانه حض على الزواج وأوصى به ، ثم هو يورد فى الفصل الأخير من الأمثال اثنين وعشرين مثلا فى مدح المرأة الصالحة والثناء عليهـا ، ولـكن الأثر الذى يتركه « كتاب أدب العلمـاء » فى النفس مـع ذلك أنه كتاب ينبض ببغض النسـاء خلافا لمـا تتضمنه أمثال سليمان وتعاليمه الدينية اذ نرى فيها دائما عقد المقارنة الصالحة بين المرأة الخبيثة والمرأة الصالحة ٠

وقد انتشرت قصص الكتاب وانتقلت الى كثير من المجاميع القصصية اللاتينية والاسبانية الشعبية والفرنسية والألمانية كما انتقلت الى القصص الخرافية الفرنسية والمسرح الشعبي الانجليزى وكتب الأمثال التي وضعت ليستعين بها القسيسون والرهبان ، ومن المصنفات المستوحاة من هذا الكتاب مجموعة شاعت بين الوعاظ ، وقد وضعت في فرنسا أو انجلترا في أوائل القرن الرابع عشر عنوانها **Gesta Romanorum** توخى واضعها الرمز والتأويل لكثير من القصص الواردة في أدب العلماء .

وقد ترجم الكتاب الى اللغات الأوربية ونظم شعرا بالفرنسية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مرتين ، كما ترجم الى الايطالية ، والمؤلفون القصصيون في أوربا عالة عليه فيما أوردوا من قصص حاكوه في بعضها واقتبسوا منه في بعضها الآخر ، وقد أخذ عنه أشهر المؤلفين في اسبانيا وايطاليا وانجلترا مثل دون خوان مانويل والارثبرست دى هيتا وبوكاشيو وشرسر وغيرهم ، فجميعهم مدينون بالفضل لبدروألفونسو في الموضاعات القصصية وفي روحها الأخلاقية .

وكان من دواعي انتشار القصص التي تضمنها الكتاب طبيعة الأسلوب الذى اصطنعه الكاتب ، فهو لايميل الى ايراد التفاصيل ولا الاستطرادات الوصفية كما في ألف ليلة وليلة ، وانما يتوخى

الخطوط العامة للقصص ولا يعنى الا بالعلاقة الوثيقة التى تربط بين الحوادث دون الاطناب فى الغرض ، فكل ما يعنى به هو التركيب فى أوجز صوره ونبذ ما لا ضرورة له ، ومن اليسير ترجمة قصة هذا شأنها دون أن تفقد شيئا يذكر فى كيانها (١).

ولم تكن هذه المجموعة القصصية هى كل ما ورثته الآداب الأوربية من الثقافة العربية التى لم ينضب معينها ، اذ لم يكد يمضى قرن من الزمان حتى نقلت مجموعة القصص التى تضمنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندباد

كتاب كليلة ودمنة :

ولسنا بسبيل أن ندون تاريخ كتاب كليلة ودمنة الذى نقله عبد الله بن المقفع الى العربية ، وكان أشبه بنقطة تحول فى تاريخ القصص العربى اذ انطلق على أثره المؤلفون يحاكونه ، كابن الهبارية البغدادى المتوفى سنة ٥٠٩ ، وقد وضع منظومة الصادح والباغم فى ألفى بيت ، وانما يعنينا تاريخه فى العالم العربى .

وكان أول طريق نقلت فيه أقاصيص هذا الكتاب وحكمه

---

(١) انظر R. Menenez Pidal : Espana come eslabon entre el Islam y el Cristianismo الإسلام حلقة اتصال بين المسيحية والاسلام ترجمتنا العربية المنشورة بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ١/٦ ص ١٢٨ وما يليها .

وخرافاته الى أوربا طريق اللغة العبرية التى ترجم النص اليها عن العربية ، ومنهـا انتقل الى اللاتينية ، ومن اللاتينية الى اللغات الحديثة .

ومنه ترجمتان بالعبرية نشرهما درنبرج سنة ١٨٨١ احداهما وأهمها تلك التى تنسب الى الحبر جول Joel الذى نبغ على ما يظهر في مطلع القرن الثامن عشر ، ولعله كان يقيم في ايطاليا ؛ أما الأخرى ، ولا يعرف منها الا بدايتها ، فهي مما عمله يعقوب ابن عزار وهو نحوى ولغوى من أهل القرن الثالث عشر ، وقد كتب للترجمة الأولى الذيوع والانتشار وكان لها أثرها في تاريخ الكتاب ، فقد عمد اليها جوان دى كابوا وهو ممن ترجموا كتب ابن زهر وموسى بن ميمون فنقلها الى اللاتينية وجعل عنوانها Directorium vitae humanae وأهـداها للكردينال ماثيو أورسيثى الذى جلس على الكرسى الرسولى سنتى ١٢٦٣ و ١٣٠٥ ، ومن طريق هذه الترجمة لم يلبث كتاب كليلة ودمنة أن تغلغل في المدارس المسيحية ، كما اتخذت هذه الترجمة أساسا لترجمة ألمانية قديمة عنوانها «أمثلة الحكماء من جنس الى جنس» أو كتاب «الحكمة» وتنسب الى ابرهاردو الأول دوق ورتمبرج (١٤٤٥ الى ١٤٩٦) أو على الأقل وضعت بأمره ، وترجمة اسبانية ترجع الى نهاية القرن الخامس عنوانها «أمثلة للتحذير مما في العالم

من خداع وأخطار، وفى الايطالية نسج على منواله اجنولو فرنزولا ودونى وكلاهما من أعلام النثر بفلورنسه فى القرن السادس عشر ، ومن هذه المحاكاة كتب جابريل جوتيه ويير دى لارفى وهما من مؤلفى هذا القرن كتابين على أسلوبه •

على أن الكتاب قد سلك قبل ذلك سبيلا أخرى غير العبرية وهى سبيل اللغة القشتالية ، فقد ظهرت فى سنة ١٢٦١ ترجمة له وضعت بناء على أمر من الملك ألفونسو الحكيم وبذلك يكون الاسبان أسبق الشعوب الأوربية الى نقل الكتاب لاحدى اللغات الحديثة •

وهذه الترجمة وهى أدق وأجل من ترجمة جوان دى كابوا لم تتم كما جاء فى ديباجة الكتاب عن طريق النقل من العربية الى اللاتينية ، وانما أخذت من العربية مباشرة ، وهـذا ما أثبته المستشرق الاسبانى باسكوال دى جانيجوس الذى كان أول من نشر الكتاب ، وأيده فى ذلك تيودور بنفى ودرنبورج وغيرهما من المستشرقين الذين لاحظوا مابين النص العربى والنص الاسبانى من تشابه واضح وقرابة قريبة كما لاحظوا كثرة ما ورد فى النص الاسبانى من ألفاظ وعبارات تنم عن أصلها العربى ويستبعد معها كل ظن فى أنها مترجمة عن اللاتينية أو غيرها من اللغات؟ ولقد بلغ من دقة النص الإسبانى أن اتخذه المستعربون أنفسهم

مرجعا لتحقيق الأصل العربى الذى تعرض لكثير من تحريف النساخ والناشرين .

ولم تكن الدوائر العلمية فى أوربا تجهل هذا النص الاسبانى بدليل أن الطبيب الفرنسى ريموندوس دى بيتريس اتخذه أساسا للترجمة الفرنسية التى وضعها استجابة لرغبة الأميرة خوانا زوجة فيليب الرشيق ، على أنه لم يتم الترجمة فى حياتها بل فرغ منها فى سنة ١٣١٣ وقدمها للملك مخطوطة فى نسخة رائعة لا تزال توجد فى المكتبة الأهلية بباريس .

ومن الطبيعى أن يكون لكتاب هـذا شـأنه وتاريخه تأثيره العميق فى آداب الشعوب الحديثة ، وهذا ما حدث فعلا حتى لقد كان مثلا يحتذى فى سائر الكتب التى اشتملت على حكم وأمثال تقال على ألسنة الطير والحيوان ، وبلغ من ذيوعه وانتشاره فى القرن السادس عشر أن عده الأخلاقيون المسيحيون خطرا على الأخلاق لما يتضمنه من آراء تتنافى مع العقائد المسيحية ؛ ولسان بدرو بسكوال مطران جيان الذى كان يتجه فى كل مايكتب الى بث الايمان فى النفوس وتقويته عبارة خاطب بها قومه ويقول فيها : أيها الأصدقاء خير لكم أن تقضوا أوقاتكم فى قراءة الكتاب المقدس ومدارسته بدلا من أن تستمعوا للخرافات وقصص الحب وغيرها من أحاديث اللهو والغرور وقصص الطير والحيوان التى

يقال انها كانت تتكلم فى سالف الدهور ، والواقع أنها لم تكن تتكلم وانما كتب ما كتب على لسانها على سبيل الشبه فقط ؛ واذا كان فيها من مثل أو قصة فليس فيها الا الخداع الذى يفسد الأجسام والأرواح .

والكتاب بطبيعته مهيأ للإشباع وللتأثير فهو قصة القصص التى يمكن أن يؤخذ كل منها على حدة ، والذى يحاكى بعض هذه القصص انما يحاكيها فى اطارها العام دون التفاصيل والجزئيات ، وبذلك لم تكن قصصه من الجمود والانغلاق بحيث يستعصى التصرف فيها وتحميلها من الأفكار والمعانى ما يروق الكاتب وما يوافق آراءه فى الحياة .

وقد تنوقلت أقاصيص الكتاب من طرق أخرى غير طريق الترجمة منها طرق الرواية الشفوية التى تأتت فى أثناء الحروب الصليبية حيث كانت هذه القصص شائعة على ألسنة المسلمين وعنهم أخذها الأوربيون، وقد ثبت أن الملك رتشارد قلب الأسد استشهد ببعض ما فيه من حكم وأمثال لتحريض الأمراء على القتال وقد تقاعسوا عنه ، وهى حكم لا شك أنها ترامت الى سمعه وهو فى فلسطين ؛ و « كتاب الحيوان » لرامون لول ليس الا صورة غير مقروءة من كتاب كليلة ودمنة تشعر بأنه ألم به الماما عاما اعتمد فيه على الذاكرة وحدها .

أما الأثر الحقيقى فيتجلى فى كتب الأقاصيص التى ألفت على نمطه ، فكان طليعة لكتب دون خوان مانويل وآرثبرست دى هيتا وكتب القصص التى ازدهرت فى أسبانيا بعدها (١) .

السندباد :

أما الكتاب الآخر فهو كتاب السندباد ويعرف فى الاسبانية بكتاب « خدع النساء وكيدهن » وقد ترجم من العربية الى الاسبانية بأمر من الأمير دون فدريك شقيق الملك ألفونسو الحكيم سنة ١٢٥٣ ، أى بعد ترجمة كليلة ودمنة بسنتين، وهذه الترجمة هى التى كان الباحث الاسبانى أمادور دى لوس ريوس أول من أماط اللثام عنها وتوسع فى دراستها الأستاذ الايطالى دومنيكو كامبرتى فبين ما لها من أهمية فى تاريخ أصول الكتاب اذ صارت كل ما بقى منه بعد ضياع نصوصه الأول فى السنسكريتية والفارسية والعربية .

وكان ممن حاكوا هذا الكتاب ونسجوا على منواله الراهب خوان ذى التاسلفا من أهل القرن الثالث عشر بعنوان « تاريخ الحكماء السبعة » الذى لاتكاد تخلو لغة أوربية من ترجمته اليها

---

(١) انظر **Menendez Pelayo: Nrigenes de la Novela, II, p. 30.**

نثرا أو شعرا ، فترجم بتصرف الى الايطالية والانجليزية والألمانية والهولندية والدانماركية والى الاسبانية ثلاث مرات ، كما ترجم شعرا الى اللغة القطالانية (١) .

المقامات :

على أن الأمر يقتصر على القصص المنقول إلى العربية عن تراث الشرق القديم بل كان لبعض الفنون القصصية التى تعد من خلق العرب أنفسهم أثر فى تطور الفن القصصى باسبانيا ؛ ومن أهم هـذه الفنون المقامة ، وقد لاحظ كثير من الباحثين ما هنالك من أوجه الشـبه القوى بين المقامات التى وضعها الحريرى وبين القصة التى تصور حياة الصعاليك Novela bicaresca فأبو زيد السروجى بطل المقامات يمكن أن يعد طليعة لبطل القصة التى وضعها الكاتب الاسبانى ماتيو آلمان Guzman de Alfarahce فكلاهما مثل حى للصعلكة وحياة الآفاقين .

الف ليلة وليلة :

ومن الكتب التى كان من شأنها التأثير فى القصص الأوربى

---

(١) Menendez Pelay : Origenes de la Nouela, t. I. p. 42.

كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد عرفته الاندلس فى وقت مبكر وانتقل منها الى اسبانيا المسيحية قبل أن يعرفه الغربيون من الترجمة الفرنسية التى وضعها جايان فى مطلع القرن الثامن عشر، فقد ورث الأدب الاسبانى بعض القصص الواردة فيه كقصة الجارية تود التى وردت فى مدونة ألفونسو الحكيم وصاغ منها المسرحى الاسبانى الخصب « لب دى فيجا » احدى مسرحياته ، وكذلك يرجع الباحثون بمسرحية كالدرون دى لاباركا التى عنوانها « الحياة حلم » الى قصة من قصصه .

ويذهب منندث بيلايو الى أن طائفة من هذه القصص نقلت الى الأوربيين شفاها فى أثناء الحروب الصليبية ولكن الذى يغلب على الظن أن اسبانيا قد ترامى اليها أصل من أصوله التى تعددت رواياتها .

ومما يدل على أن الكتاب كان شائعا بين الناس فى آخرة العهود الاسلامية فى اسبانيا أن بعض قصصه قد رواها الموريسكيون باللغة الأعجمية التى كانوا يكتبون بها كقصة قصر الذهب وما اليها .

هذا الى أن الباحثين تعقبوا طائفة من موضوعات قصص شهرزاد فوجدوا لها صدى فى قصص اسبانية ؟ من ذلك المعجزة الثالثة والعشرين لبرثيو وفيها يقذف المدين فى البحر أموالا بحيث تصل الى الدائن ، وقصة ملك اليمن وأبنائه الثلاثة التى تنسب

فيها البطولة الى من ليس بطلا فيها شبه بقصة الوعل ذى القدم البيضاء ، وقصة الغيور العجوز عند سرفنتس لها أصلها فى قصة القاضى وابنة التاجر ؟ ومن القصص ما تردد صداه فيما كتبه دون خوان مانويل وكنيونيس دى بيفانت وغيرهما ، وللأسطورة الشعبية التى أوحت الى الشاعر ثريليا « بذكرياته فى بلد الوليد » شبه كبير بقصة ينصب فيها الحديث على عدالة الله (١) .

أما تأثير الكتاب بعد ترجمة جايان له فى القرن الثامن عشر فحسب المرء ليقف على مداه أن يرجع الى ما كتبه شوفان فى هذا الباب .

على أن الانتاج القصصى الشرقى الذى انتقل الى أوربا يتجاوز الكتب المعروفة التى أشرنا الى بعضها فى هذه العجالة ، فمنه ما نقل من طرق أخرى غير طرق هذه الكتب مما لم يتعقبه الباحثون ، فالآداب الأوربية تنبض بموضوعات قصصية وفدت اليها من الشرق لا تخطئها العين البصيرة ولكنها لا تستطيع أن تحدد الطريق الذى سلكته ، من ذلك بعض القصص الخرافية الفرنسية التى ذهب جاستون بارى (١٨٧٧) فى شأنها الى أنها هاجرت من وطنها الى العالم الاسلامى ومن ثم انتقلت الى الغرب

---

(١) Menendez Pelayo : Origenes de la Novela, t. I. p. 89.

المسيحى ، وهى نظرية دحضها بيديه فذهب الى أن الشطر الأكبر من هذه القصص مما يمكن أن يولد فى أى مكان لأنها انما تتألف من عناصر انسانية عامة دون أن تتضمن دلالة ما على منبتها الأول .

ولسنا بسبيل أن نستقصى بحث هذا الجانب من المشكلة فالذى يعنينا منها أن الاتصال القصصى بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى كان له أكبر الأثر فى ذيوع كثير من القصص فى الآداب الأوربية كما يتبين بعض ذلك من الملاحظات القيمة التى وضعها ر. باسيه فى مجموعته 'Mille et un contes' recits et legendes arabes خمس وستون موضوعا قصصيا لها صلة بموضوعات قصصية فى الآداب الاسبانية والفرنسية والايطالية والألمانية والأكرانية والمجرية واليونانية والروسية والأرمنية والايسلندية .

قصة حى بن يقظان :

ونختتم الكلام عن الفنون القصصية بقصة حى بن يقظان لأبى بكر بن طفيل الوادى آشى المتوفى سنة ٥٨١ ، فقد جعل من حى وهو بطل القصة رمزا للانسانية التى تبحث عن المثل الأعلى وتتطلع الى الوقوف على المجهول من الحقائق ، وقد تجاوز فى تأملاته الحدود التى وقف عندها حى الذى وضعه

ابن سينا اذ تتصل بوجوده وحاله وظهوره فى العالم وتعلمه الجسمى والعقلى ، فالكتاب – على حد ما يقول الباحث الاسبانى مندث بلايو – يغوص من ناحية الشخصية الانسانية الى بحار الاكسير الالهى ثم هو يعد من ناحية أخرى أجرأ بحث فى التربية الذاتية التى لا يتدخل فيها المبدأ الاجتماعى (١) .

فالقصة ثمرة من ثمرات العبقرية الاسلامية التى لفتت نظر الباحثين لما بينها وبين قصة El Criticon للكاتب الاسبانى جراسيان بلتزار من تشابه واضح أثير من أجله جدل طويل حول علاقة كل من القصتين بالأخرى ، ويذهب المستشرق الأسبانى غرسيه غومس الى أن جراسيان استقى الفكرة من أسطورة كانت شائعة بين الموريسكيين الأرغونيين فى القرن السادس عشر (٢) .

وقد ترجمت قصة حى الى اللاتينية سنة ١٧٦١ كما ترجمت بعد ذلك الى اللغات الأوربية الحديثة ، وكان لها صداها وتأثيرها فى قصة روبنسون كروزو التى وضعها دانيل دى فو بحيث يعد البطل فيها صورة لحى بن يقظان المادى لا الميتافيزيقى .

---

(١) Menendez Pelayo : Origenés de la Novelá, t. I. p. 76.

(٢) E. Garcia Gomez : Un cuento arabe, fuente comun de Abentofail y Gracian ; Revista de Arch. Madrid. 1927.

الأدب التاريخى :

و من مجالات التأثير فى هذا الباب أيضا الى جانب ما ذكرنا الأدب القصصى المتصل بالجغرافية والتاريخ ، فقد فاضت كتب الجغرافية والرحلات عند العرب بالطريف من الأحاديث والغريب من الأخبار التى تتعلق بعادات الشعوب ومظاهر حياتها مما تختلط فيه الأسطورة بالحقيقة والخيال بالواقع، وهذا اللون يشبه من بعض الوجوه ما جمعه هيرودوت عن مصر وأخبارها وما نراه من القصص الجغرافية فى الآداب اليونانية القديمة.

وقد أثرت هذه الكتب وأمثالها فى المدونات التاريخية وبخاصة مدونة ألفونسو الحكيم **Grande te enerai Estoria** التى تضمنت كثيرا من الأخبار المتعلقة بمصر منقولة عن كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى اذ ورد فى المدونة عند الكلام على مصر ما نصه :

Mas fallamos que un rey sabio que fue. sennor de Niebla èt de Saltes ··· et fizo un libro en aravigo et dizenle la Estoria de Egipto ; et un su sobrino pusol- otro nombre en arabigo : Quitéb Almazahelic. Whalmelich. que quiere decir en el nuestre lenguaje de Castilla tante como libro de los Caminos et de

los Reyes, porque bla en él de todas las tierras et de los regnos quantas jornadas ay et quantas leguas en cada uno dellos e. ngo et en ancho..

وترجمتها : ولكنا نجد ملكا عالما كان صاحب لبلة وشلطيش.. وقد وضع كتابا بالعربية سماه تاريخ مصر ، ووضع له ابن أخيه عنوانا آخر بالعربية هو كتاب المسالك والممالك ومعناه بلغتنا في قشتالة Libro de los Caminos et de Reynos لأنه يتحدث فيه عن جميع الطرق والممالك وما في كل منها من مراحل ومسافات طولا وعرضا ومن هذا الكتاب نقل مصنفو المدونة قصة يوسف وزليخا Josep y donna Zulayme وأساطير آخرى (١) .

من هذا كله يتبين أن علاقة الأدب القصصي الأوربي بالتراث القصصي في الآداب الشرقية والعربية بنوع خاص علاقة كان لها أثرها في ازدهار بعض ألوان ذلك القصص .

---

(١) Menendez Pelayo : Origenes dela Novela t I p. 7

شعر الملاحم

وهناك نوع أدبى آخر كان من شأن اتصاله بالتراث العربى التفاعل معه والتأثر به ، ونعنى به شعر الملاحم ، وكان أول من أشار الى هـذا التفاعل المستشرق الاسبانى خليان ريبرا حيث لاحظ أن فى بعض كتب التاريخ العربى «مظاهر لشعر قصصى لعله ازدهر بالأندلس فى القرن التاسع والعاشر » .

وذهب الى أن الأسـاطير والقصص التى تضـمنتها بعض الروايات جزء من التراث القومى الذى كان شائعا بين الاسبان باللغة اللاتينية ، ويضرب لذلك مثلا بما ورد فى تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية عن قصة أرطباس وغيرها من القصص التى توحى بأنها من جنس الشعر القصصى المنثور (١) .

ومن خصائص هذه الملاحم أن الحوادث التى تروى فيها غير موغلة فى الماضى ، فهى لاتزال تحتفظ بحرارة الصراع الذى كثـيرا ما يحتدم بين أبطالها ، ثم انها خلو من العنصر الغيبى المقترن بمعجزات مما تتسم به الملاحم الأخرى .

هذا الى أنها تنبض بالعناصر العربية التى تتمثل فى كثـير من جوانبها ، فملحمة السيد القنبيطور التى يرجع تاريخها الى

---

(١) Julian Ribera: Disert. y Opusc, t I., p. 97.

سنة ١١٤٠ تصور مغامرات السيد وبطولته تصورا تاريخيا على نمط السير العربية ، اذ تنطلق فيها الأحداث المتعلقة بالبطل فى خط أفقى تتابع فيه حياته وتطوراتها منذ خرج من قريته فيفار وأخذ يضرب فى الأرض ليبنى له مجدا يشتهر به ، والجانب الاسلامى فى حياة السيد يتجلى فى حياته التاريخية ، فهو قد أقام فى مملكة سرقسطة من سنة ١٠٨١ الى سنة ١٠٨٧ يحارب بجنده فى سبيل عرش المستعين من ملوك بنى هود ، وكان كما ذكرنا تروقه أخبار المهلب بن أبى صفرة التى كانت تتلى عليه من الكتب العربية .

وقد لاحظ أمريكو كاسترو أن الشاعر المجهول الذى وضع الملحمة وهو كما أثبت الباحث الحجة منندث بيدال مستعرب من مدينة سالم يودع سامعيه بعد انشاد الملحمة بقوله : **Estas son las nuevas de Mio Cid** ، أى هذه هى أحاديث السيد وأخباره ؟ ولفظ **nuevas** الوارد فى هذه العبارة يعد ترجمة لكلمة أحاديث بمعنى ما يتحدث به الناس عن البطل الذى لا يورد الشاعر للدلالة عليه سوى عبارة **Mio cid** التى لا تخفى عروبتها ، اذ هى ترجمة لسيدى (١) .

ومن المعالم العربية فى الملحمة زجر الطير ، فالسيد كما ذكر الشاعر كان يزجر الطير ويتفاءل به ويتشاءم ، وتلك عادة من

---

(١) **Americo castro : Espana en su historia p. 253**

عادات العرب أشار اليها المسعودى فى مروج الذهب ، فقد ذكر أن القيافة والزجر والتفاؤل والتطير مما انفردت به العرب. قال: وان كانت الكهانة قد وجدت فى غيرها فان القيافة والزجر والتفاؤل والتطير ليس لغيرها فى الأغلب من الأمور وليس هو موجودا فى سائر العرب، وانما هو للخاص منها الفطن والمتدرب الظنن، وان وجد ذلك فى بعض الأمم كوجود ذلك فى الفرنجة وما جانسها ، ممن هنالك من الأمم ، فيمكن أن يكون ذلك موروثا عن العرب ومأخوذا عنها فى سالف الدهر ، لأن العرب قد تنقلت فى البلاد وتغيرت لغاتها ، فنسب ذلك الى الجنس الذى قطنت بينهم العرب ، ويمكن أن تكون الافرنجة ومن وجد فيها ذلك من الأمم أخذوه بعد ظهور الاسلام عمن جاورهم من أمم العرب ممن سكن بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة(١).

وطبيعة البطل الذى يصوره الشاعر طبيعة واقعية تقوم على التصور العربى للانسان ، فليس فيها خوارق أو معجزات كما يقع فى الملاحم الأخرى ، وهو قريب من نفس الشاعر ونفس مستمعيه كأنه يحدثهم عن شخص يعرفونه ، يشد لحيته ويكشف عن قلبه ويتأثر بما يتأثر به سائر الناس من دواعى الحزن والفرح .

وتكثر فى الملحمة الألفاظ والتراكيب العربية التى يستخدمها

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ١٦٥/٥

الشاعر كحرف النداء «يا» ولفظ المصلى ولفظ المحلة وما اليها، كما يستعمل ألفاظا تدل بمضمونها على أنه يفكر تفكيرا عربيا كاستعماله للفعل amanecer على نحو يقطع المرء معه بأنه ترجمة للفعل العربى « أصبح » بمعنى دخل فى الصباح ، ويشبهه من هـذا الوجه الفعل anochecer بمعنى دخل فى المساء ، وهذا مما انفردت به اللغة الاسبانية دون سائر اللغات المشتقة من اللاتينية .

وفى الملحمة الى جانب ماذكرنا نوع من العشرة بين المسلمين والمسيحيين ، فالشاعر لا ينظر الى أولئك على أنهم غرباء فى الديار التى يجتازها .

ومن مظاهر اتصال الحياة الاسلامية بالحياة المسيحية ما فى الملاحـم من شـخصيات اسـلامية كملحمة أبناء لارا السبعة Los Infantes de lara التى يقوم بدور البطل فيها فتى اسمه مدرع وهو اسم عربى ، ورد فى الأسطورة أنه من أب مسيحى وأم مسلمة زعمت القصة أنها أخت المنصور ، وفى الملحمة يرثى لارا أبناءه السبعة على نحو يشبه رثاء أبى ذؤيب الهذلى لبنيه فى قصيدته الباكية :

أمن المنون وريبها تتوجـع
والدهـر ليس بمعتب من يجـزع

وفى اختيار « سبعة » بالذات صدى لما فى التراث السامى

من ايثار هذا العدد على ما سواه حتى رددته الشعوب السامية في كثير مما تحصر به الأشياء .

وعلى هذا النسق أيضا ملحمة زايدة المسلمة La Mora Zaida التى زعمت الأسطورة أنها كانت ابنة للمعتمد بن عباد ملك اشبيلية وأهداها لألفونسو السادس فتزوجها وأنجب منها ابنه سانشو ، وتحقيق هذه الشخصية من الوجهة التاريخية كما نبه عليه ليفى بروفنسال من نص عثر عليه فى البيان المغرب أنها كنة للمعتمد بن عباد ، اذ كانت زوجة للمأمون ابنه ثم وقعت فى الأسر وحملت الى قشتالة فتنصرت وتزوجها ألفونسو السادس (١) .

فهذه الخصائص وأمثالها فى الاسبانية دليل حى على تغلغل العناصر الاسلامية فى البيئة المسيحية باسبانيا .

(١) Levi - Provencal : Islam d'Occident p. 139-148.

شعر الحدود الرومانسى

من أصداء العروبة فى الأدب الاسبانى ذلك الشعر الشعبى المتعلق بحروب غرناطة ، ففى مستهلها سقطت الحامة فى أيدى المسيحيين عام ١٤٨٢ وألفت فى صدد هـذا الحدث مقطوعات شعرية رومانسية ظل القوم يرددونها طوال القرن السادس عشر ، الا أنهم لم يكونوا يتغنون فيها بالنصر الذى أصابوه بفتح معقـل حربى عظيم الشأن كالحامة بل رددوا فيها آلام المسلمين لما عانوه من خسران بفقدهم اياه ، ومن هذه المقطوعات مقطوعة قيلت على لسان ملك غرناطة وفيها يقول : « ويلى على الحامية » ويؤكد بيرث دى هيتا مؤرخ الحروب الأهلية فى مملكة غرناطة أن هـذا الشعر وضعه المسلمون وذلك حيث يقول : وضع هذا الرومانس بالعربية عند سقوط الحامة ، وكان مثارا لأشد الآلام والأشجان حتى لقد حرم الغناء به فى غرناطة ، اذ كان كلما غنى به أحد فى أى بقعة أثار الألم وحرك النفوس الى البكاء والعويل » وزاد على ذلك أن هذا الشعر كان يغنى به أيضا فى اللغة الاسبانية .

وبصرف النظر عما ذكره من أن الشعر كتب باللغة العربية فذلك ما لم يثبت ، فان الحروب الغرناطية هذه قد ألهمت الشعراء الاسبان كثيرا من الشعر الذى ينبض بالروح الاسلامية ، من

ذلك مقطوعة شاعت أثناء محاصرة الملك فردناند لبسطة فى سنة ١٤٨٩ وقد اشتد البرد وبدا للجيش المحاصر أن الضرورة تقتضى رفع الحصار ، وقد رويت هذه المقطوعة على لسان أحد المسلمين وهو على سور المدينة المحاصرة اذ قال للملك فردناند : اذهب فلا قبل لك بزمهرير الشتاء وفي المدينة من الخبز واللحم مايكفي عشرة أعوام ، وفيها عشرون آلفا من المسلمين آلوا على أنفسهم أن يموتوا دون أن يستسلموا .

وقد ألفت هذه المقطوعة فى معسكر المسيحيين ولحنه الموسيقيون فى مصلى الملك فردناند فى ثلاثة أصوات ، ويذهب منندث بيدال الى أن تأليفه كان فيما بين سبتمبر وأكتوبر من عام ١٤٨٩ ، وقد أمر الملك حين اشتد البرد باتخاذ دور بجدران وسقوف لقضاء الشتاء فيها بدلا من خيام المعسكر ؛ وقد أعجب المسيحيون وهم يغنون هذا الشعر بالعزة الكريمة التى أبداها المحاصرون ، وأقبلوا بهمة على تشييد دورهم استعدادا لحصار طويل ، وجاءت الملكة ايزابيل نفسها لتقيم فى المعسكر الشتوى ، ولا شك أن القوم قد رددوا هذا الشعر عند استقبالهم بالمهرجانات والموسيقى .

ويرى منندث بيدال أن هذه المرحلة فى الشعر الرومانسى هى نقطة البدء فى اتجاه العطف الأدبى على المسلمين كما يظهر فى أقدم الأشعار الرومانسية Maurofilia

الموريسيكية ، وهو يتألف من شعور يقوم على الاجلال والعطف ازاء نبل العدو ، والاحترام والشفقة ازاء مصاب المغلوب ، ثم اعجاب فى أشعار رومانسية أخرى بالثقافة العربية التى راقت القوم بسموها وتفوقها •

والواقع أن المسيحيين فى تلك الحقبة كانوا يرون أنفسهم مدفوعين الى الأخذ بأسباب الحضارة الاسلامية والاستمتاع بمظاهرها بما فيها من ترف فى الملبس وزينة رائعة فى المبانى وفروسية ورثها المسلمون عن أجدادهم ، وقد بلغ من ولع الاسبان بالحياة الاسلامية أن غير قليل من فرسان قشتالة لاسيما المنفيين منهم قد آثروا المقام فى غرناطة دون سواها ، وقد استهوى هذا اللون من الشعر كثيرا من الشعراء ، وأكثر منه الشاعر المسرحى لب دى فيجا ، وبلغ من شيوعه أنه أصبح يتردد على ألسنة الناس جميعا حتى أثار ذلك ثائرة رجال الكنيسة التى راحوا يتهمون الشعراء بأنهم نبذوا قانون المسيح الى قانون محمد ونسوا أنهم يقيمون فى اسبانيا التى لم يعد فيها موسى ولا عبد الله ولا غزول الفارس على الأسلوب الزنانى وغيرهم من أبطال الأشعار الرومانسية •

ولم يقتصر النوع الموريسكى على توليد هذه الأشعار بل أنتج من القصص مثل قصة ابن السراج وشريفة الجميلة

Historia del Abencerraje y de la hermosa Jarifa

وهي من روائع القصص فى القرن السادس عشر ، وفيها يتبارى المسلمون والمسيحيون فى الكرم وهم فى ساحة القتال .

وفى هذا الموضوع بالذات وضع بيرث دى هيتا كتابه تاريخ الحروب الأهلية فى غرناطة Historia de las guerras civiles de Granada ، وقد صاغه فى أسلوب قصصى رائع روى فيه أخبارا شيقة رصعها بأشعار رومانسية ينطق بها أبطال الحوادث وشخصياتها ، ورسم فيه صورة حية للزمرات والمحافل ومظاهر الصراع الدموى ، وكان من آثار انتشار هذا الكتاب الذى تضمن ما يعد أصلا من أصول القصة التاريخية أن ذاع فى أوربا ذلك الطراز من الأدب المتعلق بالمسلم الاسبانى الذى يتجلى فى القصة الغرناطية
Le Roman grenadien

ومنذ النصف الثانى من القرن السابع عشر ظهرت فى فرنسا على أثر ترجمة الكتاب الى الفرنسية قصص عاطفية أبطالها من الشخصيات الاسلامية ، ووضعت أوبرا عن بنى سراج والثغريين ، وعرض كل من توماس بلاكويل وتوماس بيرسى عند دراستهما لشعر هوميروس وأولية الشعر الانجليزى للأشعار الرومانسية الموريسكية باعتبارها مثلا للشعر الطبيعى الحق ، كما عرض لها هردر فى ألمانيا بالدراسة منذ مطلع الحركة الرومانتيكية . وانما وقف هؤلاء على الشعر الموريسكى

من الترجمات التى وضعت لكتاب بيرث دى هيتا فقد ترجم الى الانجليزية سنة ١٨٠١ والى الألمانية سنة ١٨٢١ .

وفى هـذه الحقبة بالذات ظهرت روائع القصص والقطع الموسـيقية المتعلقة بالأدب الغرناطى .مثـل أوبـرا تشروبينى « بنـــو سراج » وقصـــة شـــاتوبريان « آخــر بنى سراج » Le dernier des Albencerrages .وقصتى وشنطن ارفنج « فتح غرناطة » The conquest of Grenade وأساطير الحمراء Legends of the Alhambra

وفى ذلك الحين أبدى ولتر سكوت وقد أدركته الشيخوخة أسفه لأنه لم يكن قد عرف كتاب بيرث دى هيتا حتى يتمكن من أن يقتبس منه ما يصلح قصة يتصل موضوعها بالمسلمين من أهـل غرناطة (١) .

---

(١) انظر R. Menendez Pidal : Espana como eslabon entre el Cristianismo y el Islam.
والترجمة العربية من عملنا ص ٢٠ — ٢٤ ، المنشورة فى مجلة معهد الدرسات الاسلامية بمدريد — المجلد الأول من السنة الأولى .

تأثير الفلسفة والعلوم

للأندلس فى تاريخ الفكر العالمى دور لايكاد يدانيها فيه قطر من الأقطار ، فقد تهيأ لها أن تكون حلقة الاتصال بين العالم الاسلامى والغرب الأوربى ، اذ تناهى اليها التراث الفلسفى اليونانى الذى تلقاه الاسلام فى رحابه ، فعملت فيه عملها بالتنقيح والتهذيب والتجديد ونقلته الى أوربا بعد ذلك

واذا قلنا الأندلس فانما عنينا ذلك الشطر من اسبانيا الذى اتصلت حياته بحياة الشطر الآخر منها اتصالا وثيقا لاسبيل معه الى فصلهما ، فكان الأمر بينهما يقوم على تجاوب فكرى أدى الى التأثير القوى فى البيئات الاسلامية التى أخذت تشهد من القرن العاشر حركة ثقافية تقوم على ترجمة المعلمة العربية الفلسفية الى اللغة اللاتينية .

وأولى هذه البيئات تلك التى كانت فى قطالونيا فى القرن العاشر ، فقد نهض فيها فريق من النقلة بترجمة بعض الكتب العلمية العربية مما تشهد به مخطوطات ريبول Ripoll ؛ ومن ألمع الأسماء فى تلك الحقبة الراهب جربرتو الذى تعلم من كتب مترجمة عن العربية .

وجاء بعد ذلك دور طليطلة ابتداء من القرن الثانى عشر

فنشطت حركة الترجمة التى نقل فيها كثير من كتب الرياضة والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والمنطق والأخلاق والسياسة كما نقلت معها شروح الفلاسفة العرب على كتب أرسطو وغيرها. وممن اشتهروا من النقلة فى تلك الحركة دمنجو جنثالث الذى يعرف باسم دمنيكوس جنديسالفى أو جنديساليناس

Dominicus Gundisalvi o Gundisalinas

وخوان هسبالنسى ، وكان أحدهم يترجم النصوص الى اللغة الرومانسية التى ينقلها الآخر الى اللاتينية المعروفة فى دوائر العصور الوسطى ، وكان مع هؤلاء أيضا نفر من أبناء البلاد جاءوا الى طليطلة بعد أن ترامت الى أسماعهم الكنوز العلمية التى ضمتها ، وقضوا فيها سنوات عدة وهم يواصلون العمل فى ترجمة النصوص العربية ، ومن هؤلاء الايطالى جيراردو دى كريمونا ــ وهو من أكثر النقلة انتاجا ، والانجليزى أولاردو دى باث ثم روبرت دى رتينس ميجيل سكوت ومن اليهم .

واستمرت حركة الترجمة بعدهم فى القرن الثالث عشر وماتلاه وقد قام بها طائفة من اليهود مثل يعقوب بن أبا مارى وليفى ابن جرسون وبروفاتيوس وغيرهم .

وقد ذهب البعض الى أنه لم يكن للغرب الأوربى قبل القرن الثالث عشر اتصال بالفلسفة العربية ، وهذا قول لايقوم عليه

برهان ، فهذه الفلسفة أو على الأقل جزء منها عرف عن طريق ما نقل في القرن الثاني عشر كما ذكرنا ، بل لقد ظهرت ملامح التفكير العربي في بعض المفكرين المسيحيين من أهل هذا القرن مثل تيري الذي تجسدت فيه ـ على حد قول دي ولف ـ الحركة الانسانية والأفلاطونية والعلمية لتلك المدارس التي ازدهرت في القرن الثاني عشر ، ويذكر أيضا هرمان الذي يصفه بعض المصنفين بأنه ممن يذهبون مذهب وحدة الوجود، وكثير من نظرياته وآرائه مما يرجع أصلها الى التفكير العربي ، والفكرة القائلة باندماج روح القدس في روح العالم ليست الا تبلورا لنظرية الأفلاطونية الحديثة والنظرية العربية فيما يتعلق بالعقل الواحد ، ثم ان النظرية الكونية للذرات التي أخذ بها جيلرمو دي كونشش هي نفس النظرية التي رددها المتكلمون في الاسلام من قبل .

ووسائل الجدل التي لم تدخل مجال الدوائر العلمية الا في أواخر القرن الثاني عشر وهي مشتقة من منطق أرسطو هي نفس الوسائل التي نبه عليها المفكرون العرب ، هذا الى أن سيمون دي تورناي وهوجو وريكارد دي فيكتور وغيرهم ممن نبغوا في منتصف القرن الثاني عشر تأثروا بكتاب احصاء العلوم للفارابي الذي لخصه جنسالفو ؟ وفكرة وجود المادة الأولى

التى ذهب اليها ابن مسرة رددها ابن جبرول فى كتبه التى
كانت هى وكتب جنديسالفو مصدرا لوحدة الوجود التى ذهب
اليها دافيد دى نانت واموری دی بنس وموريسيو فىاسبانيا ،
وهؤلاء جميعا جرحهم مجمع باريس فى سنة ١٢١٠ ، ويعزو
الباحث جلسون ما فى هذه النظرية من أصل مصدره ابن سينا
الى بعض نظريات المدرسين التى تنطوى على اتجاه أغسطونى
كنظرية الاشراق الالهى .

فلسفة المدرسيين :

على أن القرن الثالث عشر يصور الذروة التى انتهى اليها
تفكيرالمدرسين، وقد امتزجت فيه نظرياتالفلسفة باليونانية
بالفلسفة العربية مع العقائد المسيحية ، واذا كان من الثابتأن
المدرسين انتفعوا ببعض المترجمات اليونانية فلا جدال فىأن
أساس تفكيرهم وجوهره انما انتهى اليهم من طريق الشروح
والتعليقات العربية كشروح ابن رشد التى صدر الأمر بتحريم
مطالعتها فى باريس سنة ١٢١٠ و ١٢١٥ مما يشهد بأنها كانت
متداولة قبل ذلك التاريخ ، وابن رشد توفى سنة ١١٩٨
ميلادية ، والىجانب كتب ابن رشد عرفت فلسفة المدرسين
كتب ابن باجة وابن طفيل وموسى بن ميمون وبعض الكتب
المنسوبة الى غير أصحابها مما تغلب عليها الأفلاطونية الحديثة .

وللنظريات العربية أثر قوى فى كتب المدرسيين يتجلى فى مثل كتاب الفريدوس انجليكوس « De Motu Cordis » الذى تظهر فيه اتجاهات فيزيولوجية وسيكولوجية عربية .

والبرتو الكبير هو الذى أدخل العلم العربى فى فلسفة المدرسيين ، ويتبين مما أورده فى معلمته الفلسفية أنه كان ملما بآراء الفلاسفة المسلمين سواء فى ذلك الذين اشتهروا والذين لم يشتهروا ، يؤيدهم فى بعض الآراء ويخالفهم فى آراء أخرى ، ولكنه كان كثير الاعجاب بهم ، ولايكف عن التنويه بأن الكتب العربية التى يذكرها فى الفلك ليس فيها ما يناقض الدين على عكس مايذهب اليه من يجهلونها ، وبلغ به الأمر أن كتب على أسلوب ابن رشد شروحا على كتاب أرسطو فى السياسة .

ومن هنا لم يكن عجبا أن يلم تلميذ القديس توما الأكوينى بالفلسفة العربية الماما تاما ويتصدى لدحض حججها فى كثير من المواضع ، ويأخذ بها حيث يروق له كما فعل فى قضية التوفيق بين الدين والشريعة ؟ وكذلك لما أراد ريموند مارتن أن يهاجم الاسلام كان لابد له أن يلم بأفكار الغزالى وابن رشد وابن سينا وغيرهم من مفكرى الاسلام .

وكان حظ ابن رشد عظيما فى أوربا لكثرة ما نشر من كتبه باللاتينية ، فمنذ سنة ١٤٧٢ التى ظهر فيها أول كتاب له فى

بادوا الى سنة ١٦٠٨ وقد ظهر فيها آخر كتاب له بجنيف ، ظلت كتبه تتدفق فى أوربا ، ولعل خير مجموعة من كتبه تلك التى نشرت فى البندقية سنة ١٥٥٣ و ١٥٧٤ .

وظلت آراء ابن رشيد تضىء الفكر الانسانى الى آخر القرن السادس عشر ، والى جانبها نما مذهب آخر يعرف بالرشدى لم تكن له علاقة ما بابن رشد ، اذ هو فى الحقيقة يمت بصلة الى الأفلاطونية الحديثة ، وقد احتضنته ودافعت عنه المدرسة الفرنشيسكانية التى من أعلامها روجر بيكون وسيجر دي برافانت فى جامعة باريس ، وكانت هذه الرشدية تقوم على نظريتين أساسيتين احداهما تتناول الحكم على الأديان ، والأخرى وهى لاهوتية فلسفية لها صلتها بتفكير محيى الدين بن عربى ، ومن الكتاب الذين يأخذون بالأفلاطونية الحديثة مثل روجر بيكون ودنس سكوت من توخوا فيما كتبوه آراء الفلاسفة والمتصوفة والاشراقيين من المسلمين .

دانتى والاسلام :

كان لمذهب محيى الدين بن عربى وكتبه صدى فى كتب علمين من أعلام الآداب الانسانية فى القرن الرابع عشر ونعنى بهما دانتى وليلو ، فقد دل أولهما فى الكوميديا الالهية Divina

Comedia وفى الحياة الجديدة Vita Nova وغيرهما من مؤلفاته على أنه كان ملما بآراء الصوفى المرسى ، وقد ثبت أن دانتى استوحى قصة الاسراء والمعراج فى كثير من العناصر التى آلف منها الكوميديا الالهية ، ثم ان الصور التى رسمت لتمثيل الجنة والنار وما اليها تتفق ومارسمه ابن عربى فى كتاب الفتوحات المكية ؛ والظاهر أن هذه العناصر قد نقلها برونيتو لاتينى أستاذ دانتى وكان على علم تام بالثقافة العربية أو ريكولدو ، هذا الى أن الدومينكان فى تلك الحقبة كانوا يهتمون بالأفكار الاسلامية اهتماما بالغا ليتمكنوا من مناهضتها والرد عليها مما يقتضى بالضرورة معرفتهم لها .

لوليو :

أما لوليو فان تأثير الاسلام فيه يتجلى فى كتبه واعترافاته ، مثل أسماء الله المائة Els cent noms de Deu أو كتاب الحيوان El libro de les bestias أو فى Blanquerna الذى يقرر فيه أنه كتب كتاب الصديق والمحبوب El libro del amigo y del amado على نمط ما كتبه المتصوفة ، وبمطالعة آثاره وتحليلها على نحو ما فعل خوليان ريبرا وآسين بلاسيوس لا يبقى مجال للشك فى اعتماده على الثقافة العربية واقتباسها منها .

اللاهوت :

يرتبط اللاهوت المسيحي في القرن الثاني عشر بالنظريات الاسلامية التي قررها الفلاسفة وعلماء الكلام ، فكثير من المشكلات والقضايا التي عرض لها المفكرون في الملتين متقاربة تتشابه في جوانب شتى ، ومن المسلم به أن غير واحد من أعلام اللاهوت في المسيحية كانوا على علم بمذاهب علماء الكلام والفلاسفة ، والثابت أن ريموند مارتن والقديس توما الأكويني قد انتفعا بما في كتب أبي حامد الغزالي كما يشهد بذلك قول القديس توما في كثير من مواضع كتابه Suma « يقول المتكلمون في اللغة العربية » وما أشبه ذلك من عبارات (١)
Huellas del Islam

وقد عرض الباحث الاسباني آسين بلاسيوس في كتابه «آثار الاسلام» لبعض النظريات التي رددها المفكرون والمسلمون وتبعهم فيها المدرسيون ، من ذلك النظرية التي تحتج لضرورة الوحي ، ونظرية التوفيق بين العقل والايمان ، فكلتاهما مما ردده ابن حزم وابن رشد وموسى بن ميمون ، وعن هؤلاء أخذهما القديس توما والدومنيكي التطالاني رامون مارتي .

---

(١) انظر Angel González Polencia : Moros y Cristianos p. 49—26.

وكذلك الشأن في النظرية القائلة بأن الانسان ملك الخليقة وأشرف من جميع الحيوان بكماله الخلقى وحده حتى صار أهلا لآن يسمو على الملائكة ويحظى برؤية الله فى الحياة السرمدية، فقد صاغ منها اخوان الصفا فى القرن العاشر الميلادى بالبصرة مثلا سيق على ألسنة الحيوان ترجمة بعد ذلك بثلاثة قرون القس اللورقى المرتد انسيلمو دى تورميدا الى اللغة القطالانية ، ولم تلبث فكرة هذا المثل أن ذاعت فى أوربا ، وجعلت تنتقل من لغة الى لغة باعتبارها من وضعه وتأليفه الى القرن السابع عشر .

الاصطلاحات الصوفية :

ومن هذا الباب أيضا الاصطلاحات الصوفية التى عرض لها أبو العباس الرندى بالتحليل والبيان ، فقد توسل فى ذلك بمفردات شبيهة بألفاظ سان خولان دى لاكروث المكسوة بالرمز الغنائى كما تمثل فى « الليلة الظلماء للروح » .

وقد نقلت طائفة من هذه الاصطلاحات الى المسيحية الغربية عن طريق المدرسة الكرملية .

وقد أشار آسين بلاسيوس الى أن لفظ « القبض » الذى يصور الفكرة الجوهرية للطريقة الشاذلية التى وضع أبو العباس أصولها له نظائره فى عبارة سان خوان حيث يستخدم بالاسبانية

Poner, prision, apretura, aprieto en estrecho وكلها تدور حول معنى القبض .

ومثل ذلك لفظ « البسط » الذي يراد فى anchura .

وآسين بلاسيوس لا يعزو هـذا التشابه الى مجرد المحاكاة المباشرة ، بل يقول : لو نظرنا الى البيئة الجغرافية والتاريخية لاسبانيا فى القرن السادس عشر التى تثار فيها المشكلة لتبدد كل غموض ، فقد كان يعيش فى سائر مناطق اسبانيا لا فى الأندلس وحدها بل فى قشتالة أيضا عدد كبير من الموريسكيين الذين تنصروا ، وليس من المعقول أنهم بتحولهم الى النصرانية قد نسـوا الثقافة الاسلامية التى تلقوها والتى تتصل بموضوعات مشتركة فى الملتين حيث لا تمس العقيدة ، وانما تتناول بمسائل الزهد والتصوف ؛ وتدل الاحصائيات الخاصة بالقـرن السابع عشر على وجود عدد كبير من الموريسكيين فى أريفالو ومدينة وباسطرنه وشلمنقة وغرناطة والقلعة وشقوبيه وأبله وغيرها من المدن والقرى التى كانت مسرحا لحياة سان خوان دى لاكروث ، وكانت المراسيم الملـكية المتعلقة باخراج المسلمين من اسبانيا تستثنى من ذلك رجال الدين من أهـل الملتين ، ومن هؤلاء كما لا يخفى من كانوا حديثى عهد بالنصرانية أى موريسكيون متنصرون ، ومن بين «الاشراقيين» فى الأندلس وقشتاله لا ينعدم

جماعات منهم أيضا (١) .

ولم تمنح في القرن السادس عشر ذكرى الحياة الاسلامية في البيئات الاجتماعية بل ظلت قوية لها آثرها الظاهر فى الدوائر الجامعية وبين المثقفين ، ومن الآراء الشائعة أن النهضة قد قضت قضاء تاما على جميع التيارات الفلسفية والعلمية فى العصور الوسطى ، ومن ثم محت من الخريطة كل أثر للثقافة العربية وأن الفلسفة المدرسية قد جرت وراءها « الرشدية » وأن مفكرى عصر النهضة تحرروا من كل سلطان اسلامى ، وقد يمكن من الوجهة النظرية القول بأن الكتب العربية لم يكن لها أثر ما منذ سنة كذا أو كذا ، ولكن الواقع غير ذلك ، فحسبنا أن نرجع الى قوائم احدى مكتبات القرن السادس عشر لنرى مبلغ ما كانت تضمه من كتب لمؤلفين مسلمين ، ويطول بنا القول لو عددنا الكتب التى طبعت فى القرن الخامس عشر والسادس عشر وعصر النهضة في أوجه ، وانما نكتفى بما نبه عليه جنثالث بلانسية وقد تصفح كتاب جورج سارتون الذى عنوانه « مقدمة تاريخ العلوم » من أن فى قائمة الكتب التى

---

(١) M. Asin Palacios : Un procursor hispnomusulman de San Juan de la Cruz.

المنشور فى مجلة Al-Andalus مدريد ١ — ١٩٢٣/٣٤ .

استخرجها ٣٣٠ نسخة من كتب مؤلفوها من العرب ترجمت الى اللغات الأوربية والى اللغة العبرية ؛ ومن هذه الكتب ما هو فى الفلسفة والطب والفلك والكيمياء والجغرافيا مما يدل دلالة واضحة على مدى اهتمام العالم المسيحى والغربى بالعلم المكتوب بلغة عربية ، ومعنى ذلك أن هـذا العالم لم يقطع صلته بالعالم العربى فى عصر النهضة .

ولا تزال طائفة من هذه الكتب محفوظة فى خزائن الكتب القديمة بأوروبا ، ويتبين من بعضها وخاصة كتب الكيمياء والفلك والسحر وغيرها من كتب العلوم الخفية أنها كثيرا ما كانت تظهر فى محاكمات التفتيش ، كما يتبين أيضا أنها كانت متداولة بين الباحثين عن حجر الفلاسفة وغيرهم .

وقد ظل كثير من هذه الطبعات القديمة منتشرا فى الأوساط العلمية فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر يرجع اليها الباحثون لتسجيل تاريخ الثقافة التى استضاءت بها أوربا أجيالا طويلة (١) .

---

(١) A. Conzulez Palencia : Moros y crstianos p. 86/87

الفصل السابع

المدجنون والموريسكيون

لا يمكن تصور التأثير الاسلامى فى اسبانيا ابان العصور الوسطى الا بمعرفة الدور الذى قامت به الجماعات الاسلامية فى البيئة المسيحية ، فقد مثلت صورة حية للاسلام بنظمه وتقاليده وعاداته ، وكان تاريخها تاريخ الاسلام الذى ذهب سلطانه السياسى والعسكرى وبقى أثره الروحى فى النفوس •

وقد بدأت تظهر جماعات المدجنين حين اشتدت حركة الغزو المسيحى فى شبه الجزيرة فى القرن الثالث عشر الميلادى وما يليه الى أن سقطت غرناطة ، فكثرت منذ ذلك الحين الجماعات الاسلامية التى تعيش فى حماية الدولة المسيحية ، شأنها فى ذلك شأن المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى كنف الدولة الاسلامية وهم الذين كانوا يعرفون بالمستعربين •

وكان يطلق على هؤلاء المسلمين المعاهدون أو المعاقدون أو المداخلة ، الا أن اللفظ الذى شاع واستخدم للدلالة عليهم هو لفظ الدجن أخذا من قولهم دجن بالمكان دجونا أقام ، وقد

نقله المقرى فى نفح الطيب فقال : « وصل العدو الى المرج ومعه المرتدون والمدجنون (١) » . كما ورد فى موضع آخر قوله : ويسير المسلم آمنـا فى بلاد النصارى آمنـا فى نفس ومال ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن (٢) .

وليس يعنينا التاريخ السياسى لهؤلاء المدجنين الذين بقوا نحوا من ثلاثمائة عام فى المجتمع المسيحى وانما يعنينا أثرهم فى الحياة الاجتماعية والثقافيـة (٣) فعن طريقهـم ظل تراث الاسلام باقيا فى أنحاء اسبانيا لم يمحه تطاول القرون ولاتعاقب الأجيال .

وأول ما يلاحظ من آثار المدجنين فى الحياة الاسبانية أثرهم الفنى ، وقد درج الباحثون على أن يفرقوا بين الفن المعمارى للمستعربين وهو الذى ولد فى البيئة الاسلامية وتأثر بها ، وفن المدجنين الذى هو من صنع المسلمين فى البيئة المسيحية ، وكان الملوك المسيحيون يعلمون مبلغ براعة الصناع والبنائين المسلمين ، فكانوا يستخدمونهم منذ القدم فى بنـاء الكنائس والقصـور وما اليها ، ولمـا أراد الفرنسو الثالث تحصين مدينة سامورة استدعى عرفاء من أهل طليلة لهذا الغـرض بالذات واستعان

---

(١) نفح الطيب ٢/٨١١ ط ليدن .
(٢) نفس المصدر ٢/٨١٢ .
(٣) انظر F. Fernandez y Gonzalez : Estada social y Politico de los Mudejares de castilla p. 113-140

فرناندو الأول بأهل ليجو Lamego فى اقامة الكنائس التى كان قد دمرها المنصور بن أبى عامر .

والى العرفاء من المدجنين ترجع من غير شك بعض الآثار المسيحية ذات الطابع العربى كالعقد الذى فى دير ساهاجون والعناصر المعمارية فى كنيسة سانتيا جودل آرابال Santiago del Arrabal والعقد الذى فى مصلى سان بدرو Capilla de San Padro de la glesia mayor

وبعد سقوط قرطبة فى أيدى المسيحيين لم تجد السلطات الحاكمة سوى المدجنين تعهد اليهم بالأعمال الفنية ، فكان النجارون والبناءون وغيرهم من أهل الحرف الأخرى يعملون فى الكاتدرائية الكبرى مرتين كل عام ، وتقديراً لخدماتهم أصدر الفرنسو الحكيم فى سنة ١٢٨٠ رسالة نوه فيها بأعمالهم وتعهد لهم فيها بألا يتعرض أحد لهم بالأذى .

وكما احتفظ المدجنون بتراثهم الفنى استبقوا تراثهم الأدبى الذى امتد زمنا طويلا فحافظوا على عروبتهم وتقاليدهم الثقافية.

وتاريخ طلطيلة بعد سقوطها فى يد الفونسو السادس سنة ١٠٨٥ شاهد على ذلك ، فهذه المدينة التى كانت قبل العصر الاسلامى قاعدة لملوك القوط ظلت محتفظة بطابعها العربى قرونا

طويلة ، وبرز بين أهلها من المسلمين غير واحد رغم ما أحاط بهم من ظروف قاسية .

على أن ألفونسو السادس كان كما ذكرنا قد أقام زمنا فى طليطلة أثر فى نفسه تأثيرا قويا ، فكان للثقافة العربية عنده منزلة تتمثل في الحاشية التى اتخذها ، اذ كان من بين أفرادها نفر من المسلمين اختصوا به دون سواه ، وكان له كتاب يحررون الرسائل بالعربية ، كما تشهد بذلك مكاتبات تلك الحقبة .

وممن نبغوا لذلك العهد من المدجنين صادق بن خلف بن بلال الأنصارى بن بيل الأنصارى ، يكنى أبا الحسن ، روى عن أبى بكر بن أحمد بن يوسف العواد وعن أبى محمد بن قاسم بن هلال وغيرهما ورحل الى الشرق وحج ودخل بيت المقدس ، وأخذ عن نصر بن ابراهيم المقدسى وأكثر عنه ، وكان سماعه منه فى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة ، وكتب بخطه علما كثيرا ورواه ، وتوفى بعد سنة سبعين وأربعمائة .

وقد أقام زمنا فى برغش ونشر علمه فيها وهى يومئذ فى أيدى المسيحيين ، وتلك قرينة على ما كان فى بلاد قشتالة من ثقافة اسلامية تجد من يقبل عليها .

وكتب التراجم تتضمن أخبارا عن بعض العلماء من المدجنين فى طلبطلة وما جاورها ، فكان فى طليطلة مايشبه مدرسة ظلت

قائمة طوال القرن الحادى عشر والقرن الذى يليه الى أيام سان فرناندو وابنه ، كماظلت الثقافة الاسلامية مزدهرة بين المدجنين من أهل أقليش ووادى الحجارة وطلبيرة التى اشتهرت بصناعات النسيج والأدوات الفخارية الى منتصف القرن السابع عشر •

واذا كانت هنــاك مدينة من مدن اسبانيا تنافس طليطلة فى الأثر الثقافى الذى خلفه المدجنون فهى مدينة مرسية ، فقدأذكى فيها ألفونسو الحكيم قبل توليه العرش وبعده الحركة الثقافية وجمع حوله طائفة منعلماء المسلمين والمسيحيين واليهود ليترجموا الكتب العربية الى الاسبانية أو ينقلوا عنها كما ظهر ذلك فى المدونة العامة لتاريخ اسبانيا وهى مفاخر ألفونسو الحكيم ، وقد نقل فيها كما بينا آنفا عن البكرى وغيره من المصنفين العرب•

وفى السنة الثالثة من اعتلائه العرش وهى ســنة ١٢٥٥ أمر بانشاء حلقة للدراسات العربية واللاتينية يقوم بالبحث فيها أســاتذة فى الفنــون والنحو والخطابة والمنطق والرياضــيات والقانون وغيرهما من فنون المعرفة ، وأنشأ فى مرسيه مدرسة عهــد فيها الى محمــد بن أحمد بن أبى بكر القرموطى المرسى بتدريس العلوم المختلفة للمسلمين واليهود والنصارى •

واذا انتقلنا من هــذا المجال الثقافى الى مجال الحياة العامة وجدنا المدجنين قد ضربوا بسهم وافر فى أوجه النشاط المختلفة

من تجارة الى زراعة الى صناعة ، وكان ما اتسموا به من جلد مثارا لاعجاب مواطنيهم من الآسبان ، كما كانت سجاياهم التى ورثوها عن أجدادهم مما صانهم من الانحلال الذى تردت فيه بعض الطوائف فى المجتمع الاسبانى .

وقد غذت حياتهم العاطفية والنفسية شعراء الآسبان بمعانى الحب والبطولة والكرم ، وفاض الأدب الاسبانى قبل القرن السادس عشر بصورة الغيرة وألوان الحب ، واستهوت نساؤهم شعراء التروبادور فتغنوا فى أشعارهم بفاطمة وعائشة وثريا ، ونظموا فيهن القصائد والمقطعات التى أفاضوا فيها وأكثروا من ذكرهن، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر غرسيه فرنندث دى خرينا **Garci-Fernandez de Gerena** فقد أحب مغنية منهن وعلق بها قلبه وهرب معها الى غرناطة وأسلم .

ولكن السجل الحى للنساء المدجنات وصلتهن بالمجتمع الاسبانى هو ما نراه فى كتاب الارثبرست دى هيتا فقد رسم اطارا آخاذا صور فيه روح القوم حين يغنون وحين يرقصون، ولم يفته أن يتحدث عن المرأة الكريمة التى تغض طرفها عن الخنا ، وتتزين بالحياء ، ولا تنطق الا العربية .

ومن مظاهر تأثيرهم في المجتمع أن نبلاء قشتالة وأعيانها كانوا يتزينون بأزيائهم ويمارسون رياضتهم كالمبارزة بالسيف

واللعب بالعصى ويتخذون ألوان الطعام والشراب الشائعة عندهم .

أما التجارة فمما يدل على تبريزهم فيها انتشار العملات العربية فى أسواق المدن والقرى الاسبانية يتبادلها القوم بينهم ، وظلت أسماء بعضها ثابتة فى اللغة الاسبانية لتكون شاهدا حيا على مدى انتشارها وبقائها ، وكذلك الشأن فى ضروب البيع والشراء .

وكان القرن الرابع عشر من القرون الخصبة فى حياة المدجنين الثقافية والأدبية ، وتحتفظ مكتبة دير الاسكوريال بعدد من المخطوطات التى كتبت فى طليطلة واشبيلية والكالا ووادى الحجارة وقرطبة وغيرهما يرجع أقدمها عهدا الى سنة ١٢٩٤ وأحدثها الى سنة ١٤٦٥ ، ومعظم هذه الكتب فى الطب والعلوم ، ومن أهمها كتابان أحدهما فى الطب بالعربية ذكره غزيرى فى فهرسه ، ومؤلفه وهو يهودى كان طبيبا لدون فرناندو المعروف بـ Don Fernando el Emplazado والآخر كتاب لأبى عبد الله محمد الرياضى ، وقد خالف فيه بطليموس فى بعض ما ذهب اليه ، وفى هذه الحقبة بالذات نقل دون خوان مانويل فى كتبه كثيرا من الآثار والأخبار الواردة فى الكتب العربية التى كانت وقتئذ فى مرسيه واشبيليه ككتاب المسهب للحجارى وكتاب المغرب لابن سعيد .

وقد كان المدجنون يكتبون اما بالعربية واما بالاسبانية ، ومن

الآثار التى خلقوها فى الأسبانية الأشعار التى نظمها محمد الشرتوسى Mohamed el xartosi والموسوعة القانونية التى عنوانها قوانين المسلمين Leyes de Móros وقد جمعت على ما يظهر فى مطلع القرن الخامس عشر ، ومصنف السنة الذى عرف باسم مختصر السنة « Breviario Cunni » وقد ألفه فى سنة ١٤٩٢ دون عيسى جابر Don Ica Gebir وكان مفتيا وشيخا لجامع شقوبيه ؛ وكذلك الترجمة الاسبانية لتاريخ أحمد ابن موسى الرازى بعنوان Cronica dol Moro Rasis.

أما محمد الشرتوسى فكان على ما يظهر من ديوان بابينا Cancionero de Baena مدجنا من أهل وادى الحجارة ، وكان طبيبا لدون دييجو هرتادو دى مندوثا زعيم قشتالة .

ومما يذكر من أخباره أن فران سانشيت كالافيرا وجه سؤالا الى دون بدرولوبث دى أيالا الأكبر واجتمع للرد عليه نفر من العلماء والأدباء فى مملكتى ليون وقشتالة ولكنهم لم يوفقوا فى الاجابة عليه ، ثم أحيل السؤال على محمد الشرتوسى فأجاب باجابة أثنى عليه من أجلها معاصروه وحكموا له بالتفوق .

وللمدجنين آثار كتبت باللغة الاسبانية الا أنها بحروف عربية وتعرف بـ Aljamiado وقد شاع استعمال هذه اللغة

بين الموريسكيين ، ومن هذه الآثار قصيدة يوسف Poema de Yusuf وقصة الاسكندر Historia de alejandro، ومن أطرفها أيضا تعليق على أشعار دينية لابراهيم دى بلفاد Ibrahim de Bolfad يورد فيها تمثيلا لمسرحية عن معجزات الرسول عليه السلام ، وكذلك الأنشودة التى رويت على لسان أبى عبد الله آخر ملوك بنى نصر وبكى فيها غرناطة. ونصها عربى مكتوب بحروف لاتينية .

فهذه المظاهر وأمثالها مما أكدت وجود عنصر المدجنين في الحياة الاسبانية وتركت أثرا لا يمحى فى التراث المسيحى تراءى فى اللغة والأدب والفن والنظم الادارية والسياسية .

الموريسكيون

اذا كان المدجنون يمثلون الاسلام الذى حافظ على كيانه فى نطاق المجتمع المسيحى فان الموريسكيين تقلبت بهم الأحوال فتنصر منهم من تنصر ، وحافظ بعضهم على دينه مظهرا النصرانية ومبطنا الاسلام دون أن يروا فى ذلك غضاضة اذ كانوا يذهبون مذهب التقية أخذا من قوله تعالى « الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

وتاريخ الموريسكيين هو تاريخ الصراع بين اسبانيا الغالبة الموحدة وفلول العنصر العربى المغلوب بعد سقوط غرناطة ، وقد بدأ أول فصل من فصول هذا التاريخ فى القرن السادس عشر حين رأى المدجنون أنفسهم وقد أكرهوا على التنصر والا تعرضوا للتعذيب أو النفى . بذلك ظهرت المشكلة الموريسكية التى شغلت ملوك اسبانيا نحو قرن من الزمان واهتز لها كيان المجتمع الاسبانى ، اذ لم يندمجوا فيه الاندماج الكامل الذى يجعلهم يفنون فيه ، بل كانوا يشعرون بأنهم ورثة حضارة أصيلة لها أمجادها المذكورة فى شبه الجزيرة فظلوا لذلك شجى فى حلق السلطات الحاكمة لا تكاد تخبو نار ثورتهم حتى تشتعل مرة أخرى .

والموريسكيون على صنفين صنف الأحرار وجلهم من أهل غرناطة يعيشون بين ظهرانى المسيحيين ويتزينون بأزيائهم ويتكلمون لغتهم ، ثم صنف الأتباع وأكثر هؤلاء كانوا يقيمون في بلنسيه وأرغون ، وكانوا يستمتعون بقدر من الحرية الدينية لا يستمتع به أولئك .

وأول حركة قام بها الموريسكيون تمثلت فى ثورة أهل البيازين سنة ١٥٠٠ ، ثم امتدت الى البشرات وبسطة ووادى آش وغيرها حتى اضطر الملك فرناندو أن يتدخل بنفسه لقمعها وعلى أثرها صدر فى الحادى عشر من فبراير سنة ١٥٠٢ أمر يقضى على المسلمين بأن يخرجوا من أسبانيا أو يتركوا دينهم مما أفضى بكثير منهم الى اظهار النصرانية .

وفى عهد دنيا خوانا ضربت لهم السلطات الحاكمة أجلا أمده ستة أعوام يكفون بعده عن لبس ثيابهم ، ثم مد الأجل عشرة أعوام أخرى ، وصدر مثله فى عهد كارلوس الأول (١٥١٨) ، ولكنهم لم يعبأوا بذلك كله فأخذوا بالشدة وحرم عليهم فى سنة ١٥٢٥ الخروج من الأحياء التى يقيمون فيها والعمل فى أيام الأعياد والأذان للصلاة ، ثم ألزموا بأن يحملوا علامات تدل عليهم كأن يضعوا فى قبعاتهم قطعة من القماش الأزرق فى صورة هلال ، وفرض عليهم التعميد فى اليوم الثامن من شهر ديسمبر من تلك السنة .

وكان على أهل بلنسية أن يخرجوا من أسبانيا يوم ٣١ ديسمبر، أما سكان سائر الأمصار فضرب لهم أجل فى يناير سنة ١٥٢٦ ، وعندئذ سألوا الملك أن يؤخرهم أربعين سنة ، فلما انتهى الأجل عقد فى مدريد اجتماع لبحث المشكلة الموريسكية وكان من نتائجه أن حرم عليهم التكلم بالعربية واستخدام الحمامات واقامة الحفلات ؛ غير أن هذا أفضى بهم الى ثورة أشعلوها فى البشرات كانت الحرب فيها سجالا بينهم وبين الجيش الأسبانى، وانهزم فيها القائد تلو القائد بحيث لم يطفىء جذوتها الا دون خوان دى أوستريا .

وعلى الرغم من ذلك كله لم يقرر الملك فيليب الثانى طردهم وان كان قد حاول ذلك ، وظل الأمر على هذا النحو الى أن أصدر فيليب الثالث فى ١٦٠٩ مرسوما بهذا المعنى أشار عليه به دوق دى ليرما والقس خوان دى ريبرا مؤثرا بذلك التضحية بالثروة التى يمد بها الموريسكيون البلاد فى سبيل الوحدة الدينية المزعومة وتوطيد سلطان الملكية ، وقد كان لهذه الحركة وقعها فى النفوس مما تدل عليه الكتب والرسائل التى كتبت فيما بين سنتى ١٦١٠ و ١٦١٣ ذلك أن الموريسكيين كانوا يعدون جزءا من اسبانيا وامتدادا لشعبها ، وقد ورثوا عن المدجنين البراعة فى الصناعات اليدوية والولع بزراعة الأرض ، وفى القرن

السادس عشر ارتفعت الأصوات باستنكار اجراءات التفتيش وخاصة من أصحاب الأراضى فى أرغون ، لأن الموريسكين كانوا عمد الزراعة والقائمين عليها •

ومن الذين اشتهر ذكرهم بالاحتجاج على ما تعرض له القوم دون سانشو دى كاردونا أمير أرغون الذى أدانه المجمع المقدس لافراطه فى التسامح مع الموريسكين حيث أذن لهم باقامة مسجد فى ادزانيتا Adzaneta ، وقيل انه فكر فى أن يلجأ الى البابا بل الى سلطان تركيا ليحتج على ماكانت تعمد السلطات الحاكمة اليه من تعميد الموريسكين فى بلنسيه رغم أنوفهم •

الفصل الثامن

الآثار الإسلامية فى إسبانيا

كان الفن فى اسبانيا الاسلامية تعبيرا عن الحياة الاجتماعية التى تتخذ من الأثر أمارة تدل على القوة الدافعة التى تحركها ومظهرا تثبت به الجماعة قدرتها على اتخاذ صورة خالدة تترجم فيها المثل العليا لحياتها الدينية والمدنية .

وقد بقيت الآثار الاسلامية فى اسبانيا لتكون شاهدا على ما بلغته حضارة الاسلام من ثبات لم يزعزعه مرور القرون ، ولا الصراع الدموى بين المسيحية والاسلام ، وكانت المآذن والأبراج والقصور أشبه بالمعالم فى طريق الاسلام الاسبانى ، تنبض بحرارة العقيدة ، وحمية الجهاد ، وترف الحياة .

وقد نمت العمارة فى الأندلس مع نمو المجتمع واتساع مداه ، فكان عصر الدولة الأموية العصر الذى تطورت فيه على نحو بلغت فيه الذروة فى المسجد الجامع بقرطبة ، ثم تعددت ألوانها

فى عصر ملوك الطوائف ، وأبدع الفنان المسلم فى التفاصيل والجزئيات كما يتمثل ذلك فى قصر الجعفرية بسرقسطة ، واكتمل لها الجلال والروعة فى آثار الموحدين الشاهقة ، ودقت حتى صارت عمارة زخرفية فى قصر الحمراء بغرناطة .

المسجد الجامع بقرطبة

يعد المسجد الجامع بقرطبة من أروع ما خلفته الدولة الأموية من آثار ، وقد تعاقب على بنائه والزيادة فيه عبد الرحمن الداخل والأمير هشام ، وعبد الرحمن الأوسط ، والخليفة عبد الرحمن الناصر ، كما زاد فيه الحكم المستنصر ، والمنصور بن أبي عامر .

وقد أقام المسلمون المسجد في أول أمره على أحد شطرى كنيسة سان فنسنت وأخذوا في ذلك بما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر بن الخطاب عن مشاطرة أهل الذمة كنائسهم .

ولما استتب الأمر لعبد الرحمن الداخل واستقر في قرطبة نظر في أمر الجامع فسام النصارى بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا بيع ما بأيديهم ، وسئلوا أن يباح لهم بناء كنيستهم التى هدمت بخارج المدينة وتعرف بشنت أجلح خارج الأسوار ، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به فتم الأمر على ذلك سنة ١٦٨ - ١٦٩ ، فابتنى عبد الرحمن المسجد ، وكان نصفه مسقوفا ونصفه الآخر لا يظلله شىء ؛

والنصف المسقوف يتألف من تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة تمتد على اثنى عشر قوسا تقوم على عمد من الرخام •

والسقف يتألف من سماوات خشبية كل منها تختلف عن الأخرى ، وتكتفى بما فيها من بديع الصنع وروائع التلوين ، وتحتها ازار من خشب نقشت عليه آيات قرآنية •

وبين العمد الرخامية على أعلى الرأس عقود متجاوزة تقوم مقام الأوتار الخشبية ، وتربط الأعمدة فيما بينها عقود أخرى نصف أسطوانية ؛ ويتعاقب فى جميع العقود العليا والدنيا اللون الأصفر الشاحب واللون الأحمر نتيجة لتناوب الحجارة والآجر مما يكسب المسجد مظهرا زخرفيا رائعا •

وبنيانه من الحجر الجيرى اللين المائل الى الاصفرار ، فى كتل صفت على التعاقب بحيث يبدو للعين وجهها الأكبر ثم وجهها الأصغر ، ومجموعات صفوفها متسقة على نحو يؤدى فيما بينها الى الترابط والاحكام •

والناظر الى المسجد بين الأعمدة تبدو له وكأنها غابة من النخيل ينيرها ضوء شاحب يتسلل من الصحن ومن شبكات الواجهات ؛ وتتسم العناصر المختلفة باتساق فى المظهر الخارجى ، وفى التركيب الداخلى ، يحدده تداخل العقود التى تقوم على عمد ودعائم مرتفعة فى الفضاء تنتهى عند السقف فى وضع أفقى

يكتنفه ظلام خفيف ، وتنتهى من أسفل بأرض شبه ترابية ..
كل ذلك بين ظلال يلمع من خلالها بريق الرخام والأحجار
المذهبة وقوالب الآجر .

وعدد الأعمدة ١٤٢ يتألف الواحد منها من قاعدة وبدن
وتاج ، قد أرسيت دون أن تتخذ مستوى واحدا بحيث ان
بعضها توارى بدرجات متفاوتة ، وأبدانها ملساء فى مجموعها
وان كان بعضها مزدانا بضلوع حلزونية أو مستقيمة ؟ أما
التيجان فبعضها يزدان بأوراق النبات المعروف بشوكة اليهود ،
وبعضه الآخر فى شكل الناقوس يزينها أوراق الزنبق وتذكر
من يراها بزهرة اللوتس المصرية .

والمسجد تعلوه قباب تتألف من ضلوع متقاطعة فيما بينها
بحيث تتكون منها أشكال نجمية بديعة ، ومن أروع هذه القباب
قبة الضوء أو القبة المخرمة الكبرى ، وتبلغ نوافذها ستة عشرة
نافذة يدخل منها الضوء فينير جوانب المسجد .

على أن أجمل ما في المسجد هو المحراب اذ أقيمت على واجهته
سبعة عقود ثلاثية الفصوص ، مزججة دقيقة التكوين والزخرفة ،
يعلوها افريزان بين بحرين من الفسيفساء المذهب على أرض
الزجاج اللازوردى ، وتحت هذه العقود افريزان آخران ؛ وعلى
رأسه رخامة مشبوكة محفورة منمقة تشبه القوقعة المقلوبة ، وعلى

جانبيه لوحتان من الرخام حفرت فيهما توريقات وتشجيرات تعد آية في الروعة والجمال .

والمنبر عود مؤلف من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والمرجان وأوصاله من فضة مثبتة .

وقد أفاض المؤرخون في وصف ماكان عليه المسجد ، فذكر ابن غالب أنه « كان يعمره ويخدمه من الخطباء والأئمة والمؤذنين والقومة مائة رجل وعشرات ، لهم من الدنانير على اختلاف منازلهم ثمانمائة دينار في الشهر مكافأة على رتبتهم وتعطيل أشغالهم حاشا الديار لسكناهم » . قال ابن حيان : وجدت بخط الحكم أن مبلغ النفقة في الزيادة المنسوبة اليه من الدنانير مائتا ألف وواحد وستون ألفا وخمسمائة وتسعة وثلاثون دينارا وعشرون ونصف عشر » (١) .

وظل المسجد على حاله بعد الزيادة التي أدخلها عليه المنصور طوال العهد الاسلامي؛ ولما سقطت قرطبة في يد فرناندو الثالث سنة ١٢٣٦ حول الى كنيسة سميت كنيسة سانتا ماريا الكبرى، وفي سنة ١٣٧١ أقام ملك قشتالة دون انريك الثاني المصلى الملكي المعروف بمصلى سان فرنندو بجوار قبة الضوء ، وغطيت جدرانه بزخارف من عمل المدجنين محفورة في الجص .

(١) انظر ابن غالب : قطعة من كتاب فرحة الأنفس تحقيقنا ص ٣٠ .

وتعرض المسجد منذ القرن الخامس عشر للتشويه والتبديل، ففي سنة ١٤٨٩ هدم الأسقف انيجو مانريكي العقود والأعمدة في البلاطات الخمسة الممتدة طولا من مصلى فيلافسيوسا الى جدار الجامع الغربي ، وفي سنة ١٥٢٣ شرع الأسقف دون ألونسو مانريك في هدم جزء كبير من زيادة عبدالرحمن الأوسط والمنصور ليقيم كاتدرائية قوطية في قلب الجامع ، ولكن المجلس البلدي بقرطبة ونفرا من أعيان المدينة أنكروا ذلك ولم يرضوا به ، وعرض الأمر على شارلكان فوافق على هدم ما يلزم لبناء الكنيسة ، ولم يكن قد رأى الجامع ؛ فلما مر بقرطبة في سنة ١٥٢٤ بمناسبة زواجه في اشبيلية بدنيا ايزابيلا البرتغالية ورأى الجامع راعه ما رأى من جلال الفن وعظمة البنيان ، ثم توجه بالحديث الى فراى خوان أسقف طليطلة والى أعضاء المجلس الكنسي وقال كلمته المشهورة : « لو كنت قد علمت ما وصل اليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم ، لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان وما هدمتموه فريد في العالم ».

قصر الجعفرية فى سرقسطة

بناه أبو جعفر أحمد المقتدر بالله من سنة ١٠٤٧ الى سنة ١٠٨١ وسمى بالجعفرية نسبة الى كنيته ، وكان يسمى أيضا مجلس الذهب وفيه يقول :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكى خلافكما
كانت لدى كفاية الطلب

ولما سقطت سرقسطة فى أيدى النصارى حول القصر الى دير ، ثم اتخذه ملوك أرغون حصنا وألحقت به عدة مقصورات دينية ، وأضيفت اليه فى عهد الملكين الكاثوليكين فرناندو وازابيل قاعة العرش سنة ١٤٩٢ ؛ وفى عهد ايزابيل الثانية حول الى معسكر سنة ١٨٦٦ فهدمت المقصورة الكبرى التى شيدها بدرو الرابع وجردت منها زخارفها الاسلامية ، وقد وصم جوميث مورينو هذا العمل بأنه « عمل بربرى يندى له الجبين ومن أشد النقط سوادا فى تاريخ اسبانيا » .

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر ابره ، يتألف من سور مستطيل يدعمه تسعة عشر برجا شكلها أسطوانى عدا برج التكريم ، فقد كان مربع الشكل بداخله عقود متجاوزة ،

وفى وسط هذا البناء صحن مستطيل تدور به أروقة جانبية ، على حين كانت تطل على جانبيه مجموعتان من الغرف كل منها تتألف من قاعة فى الوسط وغرفتين جانبيتين كما هو الحال فى قصور بنى نصر بغرناطة وقصور المدجنين •

والى جانب برج التكريم قاعة كبيرة لعلها مجلس الذهب ، وتنفتح فى جانبيها غرفتان احداهما يشغلها المسجد الذى لايزال قائما حتى وقتنا هذا ؛ وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل جنوبا بالصحن ، وكان يقابله فى الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام لكثرة أعمدتها الرخامية ، وقد كشفت بائكة من العقود الاسلامية كانت تتصل بأسطول المدخل الرئيسى على أثر هدم جزء من مقصورة سان جورج التى فى جنوب قاعة الرخام ، وتتألف هـذه البائكة من ثلاثة عقود كلهـا غلو فى التعقيد الزخرفى ، وعقودها طبقتان احداهما فوق الأخرى ، والدنيا منهما من عقود مفصصة متقاطعة فوقهـا عقود أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات ، وفيها يتمثل اتجاه الفن الأندلسى الى التعقيد والغلو فى حشد الزخرفة والتوسل بالعقود المتقاطعة التى تظهـر فيها التوريقات المتشـابكة والتشـجيرات المتداخلة •

أما المصلى فبابه مدجن ، وداخله مثمن الشكل ، وأصله مربع طول ضلعه ٥ر٤٦ من المتر حول الى مثمن بأن أقيمت فى أركانه

أنصاف حوائط ، ويشغل المحراب الركن الجنوبى الشرقى ، وتعلوه قبية مفصصة قوقعية الشكل ، ومدخله على شكل عقد متجاوز يشبه عقد جامع قرطبة ، يحيط به افريز مستطيل وفى بنيته قوقعتان ، أما سنجاته فمحشوة بالزخرفة وملساء بالتناوب، ويزين الجدران السبعة الأخرى عقد أصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط والمنحنيات، ويحيط به افريز بارز يتخذ الشكل نفسه ؛ وتحمل هذه العقود أعمدة ملتصقة بالجدران ، ويجرى بالأجزاء العليا من جدران المصلى طراز زخرفى تعلوه بائكة زخرفية ، تتألف من عقود مزدوجة مفصصة تقوم على أعمدة صغيرة .

وفى متحف سرقسطة مجموعة رائعة من تيجان الأعمدة المرمرية التى تصور مقدار ما بلغه الفن الأندلسى من تطور بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الاسلام ، ونلمس فى هذه التيجان حرية الأداء التى طبعت هذه التيجان بطابع من الرشاقة ، وأضفت عليها قواما أسطوانيا يحمل فى أعلاه رأسا مكعبا ، وتكسو هذه التيجان زخارف قوامها ورقة الأكنش ؛ والتوريقات الدقيقة التى حفرت على طبقتين حفرا غائرا يبرز هذه الزخارف (١) .

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ٩٢ = ٩٧ .

قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة

بناه المأمون بن ذى النون ملك طليطلة سنة ٤٥٥ ، وكان آية فى الروعة والجمال ، ففى وسطه بحيرة تتوسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، يجرى اليها الماء وينزل من أعلاها على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصل اليه ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر عجيب .

وقد وصف الأديب ابن جابر أحد مجالس هذا القصر وهو مجلس المكرم فقال : وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ؛ وأغرب ماقيد لحظى من بهى زخرفه الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه الى ما فوقه ازاره الرائع بأسره حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ونصاعة التلوين ، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم ، وأطيار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان أشجار وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث ، كما تعلق بعضها ببعض بين ملاعب ومثاقف ، تزنو الى من تأملها بألحاظ عاطف كأنها مقبلة عليه أو مشيرة اليه ؛ وكله

صورة منها منفردة عن صاحبتها متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلى الى ما فوقها ، قد فصل هذا الازار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير، مخرم محفور، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، قد خطه المنقار أبين من خط التزوير، قائم الحروف بديع الشكل ، مستبين على البعد ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت من أماديح مخترعه المأمون .

وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الابريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار وصور أنعام وأشجار تذهل الألباب وتقيد الأبصار .

وأرض هذه البحار مدحوة من أوراق الذهب الابريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير وأبدع تقرير .

ولهذه الدار بحيرتان قد نصبت على أركانهما صور أسود مصوغة من الذهب الابريز أحكم صياغة ، تتخيل لمأملها كالحة الوجوه فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هونا كأشتيش القطر وسحالة اللجين ، وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المذبح ، محفور من بديع المرمر ، كبير الجرم ، غريب الشكل ، بديع النقش، قد أبرزت من جنباته صور حيوان وأطيار وأشجار ، وينحصر منها فى

شجرتى فضة عاليتى الأصل غريبتى الشكل ، محكمتى الصنعة ، قد غرزت كل شجرة منهما وسط كل مذبح بأدق صناعة ، يترقى فيهما الماء من المذبحين ، فينصب من أعالى أفنانهما انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية ، فتحدث لمخرجه نغمات تصبى النفوس ، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخم متضغط الاندفاع ، ينساب من أفواهها ، ويبلل أشخاص أطيارها وثمارها بألسنة كالمبارد الصقيلة ، يقيد حسنها الألحاظ الثاقبة ، ويدع الأذهان الحادة كليلة (١) .

وقد اندثر هذا الأثر من بين الآثار الاسلامية ولا يعرف من أمره شيء ، ولكن فى طليطلة اليوم آثار قصر يعرف بقصر جليانا فى فحص نهر تاجه ، والظاهر أنه هو المنية أو القصر الشهير الذى شيده أبو الحسن يحيى المأمون بن ذى النون .

وقد نسج المؤرخون الاسبان حول هذا القصر قصصاً من الفروسية والأساطير ، وتروى هذه القصص أن أميرة مسلمة وتدعى جليانا كانت تعيش فيه ، وبعد مغامرات عجيبة انتهى بها الأمر الى أن تتزوج الامبراطور شارلمان ، وقد بقى من هذا القصر جزء مستطيل أقيم فى طرفيه طبقتان تؤلفان برجين كبيرين ، وتتكون الطبقة الدنيا من قاعة متوسطة ، وتتخلل جدرانها فتحات .

---

(١) الذخيرة ق ٤ ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

والبناء على الطراز الطليطلى تتناوب فيه صفوف الحجارة وصفوف الآجر، أما القبوات فمتعارضة ، وقد بقيت بعض عقود نصف دائرية قليلة التجاوز ، وأخرى مفصصة فى مداخل الغرف ؛ أما الزخارف فمن نوع المدجن ، وتحمل رنوك أسرة قزمان مما يفسر الى حد كبير صحة هذه الرواية (١) .

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ص ٩١ .

المسجد الجامع باشبيلية

هو من آثار عصر الموحدين بناه الخليفة المأمون أبو يعقوب يوسف، وقد جمع له الفعلة وأحضر الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة ، وظل البناء مستمرا حتى كمل بالتسقيف وقارب جامع قرطبة فى الاتساع ، وكان الناظر على البنائين والعرفاء العريف أحمد بن باسه وصاحب تقييد الانفاق أبو داود يلول بن جلداسن ، وكان جامع اشبيلية يضم ١٧ بلاطا تتجه من الشمال الى الجنوب ، وتتسع لأربعة عشر آسكوبا ، ويمكن تقدير اتساعه على وجه التقريب بنحو ١٥٠ مترا فى الطول و ١١٠ أمتار فى العرض ، أما العقود فكانت متجاورة منكسرة بعض الشيء ، وكانت مخارجها تنطلق من مناكب الدعائم كما يتجلى ذلك فى عقود الصحن .

والزخارف التى بقيت تصور بعض اتجاهات الزخرفة الأندلسية المغربية فى عهد الموحدين، من ذلك الزخارف المحفورة فى الجص بالعقد الداخلى لباب الغفران ، وكذلك على العقد المطل على الصحن فى امتداد هذا الباب ، وقبوة المقرنصات بالباب الشرقى .

وزخارف عقد المدخل المؤدى الى الصحن قوامها أشرطة بارزة ترتسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رءوسها ، وهو أسلوب بيزنطى الأصل له نظائره فى جامع قرطبة ومدينة الزهراء ؛ أما الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من سعف النخيل الملساء التى تخلو من السيقان ، تطوقها خطوط محززة ، وأطرافها تنحنى فى تجمدات ، وتتلاحم فى تناسق وايقاع ، وترتسم فى بعضها خطوط لولبية محززة ، وقد حفرت الزخرفة النخيلية على طبقتين مما يضفى عليها نوعا من التباين القوى بين الظلمة والنور .

وكان جامع اشبيلية يجمع بين صور انشائية وفنية ظهرت فى مساجد الموحدين بمراكش وصور أخرى مستوحاة من المسجد الجامع بقرطبة .

ولعل أروع ما فى المسجد صومعته (منارته) التى تم بناؤها فى عهد أبى يوسف يعقوب ، وكانت مثارا لاعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء ، لما امتازت به من جمال وسمو ودقة زخارف وتناسق بنيان بحيث لما حاصرت جيوش قشتالة اشبيلية فى عام ١٢٤٦ وردد البعض فكرة هدم المسجد وتقويض المئذنة قال دون ألفونسو كلمته المشهورة : « سأقطع رقابكم جميعا لو مسستم حجرا واحدا منها » .

وقد حول المسجد بعد سقوط اشبيلية في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الى كنيسة أطلق عليها كنيسة سانتا ماريا وغير اتجاهه ليصلح لاقامة الشعائر المسيحية فيه فأضيفت اليه عدة مصليات أهمها المصلى الملكي •

ثم تلاحقت عليه بعدئذ أضرار جسيمة على أثر الزلازل ، فاتخذ المجلس الكنسي قرارا بهدمه لعدم صلاحيته وبناء كاتدرائية أسلوبها قوطي على نمط الطراز السائد في ذلك العصر ، ووضع حجر الأساس في سنة ١٤٠٢ وبدأت أعمال البناء من الجانب الغربي ، ولم يبق من المسجد الا عدة عقود تطل على صحنه من جهة الشمال والشرق •

أما الصومعة فقد بقيت على صورتها الأولى وحولت الى برج للنواقيس ملحق بالكنيسة ، وتعرضت لزلزال في سنة ١٣٥٥ ذهب بالتفافيح الأربع المذهبة التي كانت تكللها ، ثم زال الجزء الأعلى منها على أثر صاعقة في سنة ١٤٩٤ ، وسقط جزء آخر في زلزال وقع سنة ١٥٠٤ ، وعندئذ قام المهندس هرنان رويث ببناء برج علوى تم سنة ١٥٦٨ ونصب في أعلاه تمثال من البرنز يرمز للمسيحية صنعه برتولومي موريل سنة ١٥٦٧ بحيث يدور مع الرياح يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار ، وقد أطلق عليه لذلك جيرالديو **giraldillo** أو دوارة الهواء ، ثم ما لبث أن

حول هذا الاسم الى جيرالدا Giralda ، وأصبح يطلق منذ أوائل القرن الثامن عشر على البرج بأكمله .

والجيرالدا احدى الروائع التى تعتز بها اسبانيا واليها يقصد السائحون من سائر أنحاء العالم فتبهرهم بسموقها وجلالها وزخارفها الموزعة فى تعادل واتزان .

قصر الحمراء فى غرناطة

يعد قصر الحمراء منتهى ماوصل اليه الفن الأندلسى من رقة حضرية وترف دنيوى ، ومثالا من أمثلة الفــن الذى أوحت به الرغبة فى التمتع بالحياة ومباهجها ، فهو يتراءى بين الخمــائل والجنان كأنه دمية تهب عليها نسمات رقيقة ، وتنساب فيها المياه الجــارية ، وتغرد عليها الطيور الصداحة فتتألف من ذلك كله سيمفونية رائعة عناصرها مشتقة من الطبيعة الحيــة التى تغمــر بألوانها وأنغامها الأبهاء والقاعات .

وأقدم آثار الحمراء حصن القصبة الذي ينسب الى محمد ابن نصر (١٢٤٨ – ١٢٧٢) مؤسس دولة بنى نصر ، ولم يبق منه الا باب النبيــذ الذى لايزال قائمــا فى معزل عن بقية الأبنية الأخرى، ثم بنى محمد الثالث(١٣٠٢ – ١٣٠٩) مسجدا سلطانيا لا أثر له اليوم فقد هدم بأمر من الملك فيليب الثانى سنة ١٥٧٦

ومن أقدم قصور الحمراء التى ترجع الى عهد يوسف الأول قصر البرطل ، ويطل على بركة تزودها نافورة بالمياه ، ووراءه قاعة مربعة تشبه البرج ، والى يمينه مسجد صغير ملحق به ، وغير بعيد من قصر البرطل يقوم برج الأسيرة على مرتفع يعلو

الحفير الفاصل بين الحمراء وجنة العريف ، وفي وسطه صحن داخلي صغير تحيط به من جهاته الأربع مجنبات، وتزدان قاعاته بزخارف زليجية ملونة وأخرى مذهبة ؛ وبين مصلى البرطل وبرج الأميرة برج يعرف ببرج الشرفات لكثرة شرفاته المدببة وميازيبه البارزة على أخد جوانبه •

وقصر الحمراء يتألف من ثلاث مجموعات، اثنتان منها ترجعان الى عصر يوسف الأول والثالثة ترجع الى عصر محمد الخامس، والمجموعة الأولى لم يبق منها الا أسسها ، أما المجموعة الثانية فتضم قصر السلطان ومقر الحكم ، ويتوسطه بهو الريحان، وفي جهته الشمالية برج قمارش الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء •

وزخارف هـذا القصر آية في الابداع تتألف من زخرفة جصية ملونة ونباتية وكتابية •

والى شرق مجلس قمارش وبهو الريحان الجمامات السلطانية، وهي من أقدم أبنية القصر ترجـع الى عهد يوسف الأول ، والقاعة الأساسية فيها تعلوها قبة تخترقها مناور على هيئة أشكال نجمية ينفذ منها الضوء ، وتكسو الجزء الأول من الجدران تربيعات رائعة من الزليج •

وأما المجموعة الثالثة وهي من بناء محمد الخامس فهي مجموعة قصر السباع ، صحنه الرئيسي ويعرف ببهو السباع تتوسطه

فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء يستدير تحت الجزء الأدنى منها اثنا عشر آسدا تمج الماء من أفواهها •

وتدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرفيعة الرشيقة عقود نصف أسطوانية بمطولة تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية ، وفيها نقوش كتابية يذكر فيها محمد الخامس ويلقب بالغنى بالله وشعر لابن زمرك فى مدحه •

وتحيط بالصحن من الشمال والجنوب قاعتان من أروع ما جاد به فن العمارة فى الأندلس الجنوبية منهما قاعة بنى سراج وعلى رخامها آثار بقع حمراء يقال انها من دماء بنى سراج بعد أن بطش بهم ملوك بنى نصر ؟ وتعلوها قبة من المقرنصات الدقيقة نجمية الشكل ، أما القاعة الشمالية المقابلة لها فتعرف بقاعة الأختين نسبة الى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين فى الشكل كانتا تكسوان الأرض ، وقبتها مثل قبة قاعة بنى سراج نجمية الشكل تتألف من مقرنصات دقيقة تشبه خلايا النحل ، وتؤدى الى شرفة تطل على حى البيازين •

وجدران هاتين القاعتين مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة تتخللها كتابات كوفية نسخية وأدعية للسلطان ، والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء (١) •

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ١٠٦ — ١٢٤ .

مراجـــع الكتاب

المراجع العربية

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم) .
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، القاهرة ١٨٨٢ .

ابن حزم (أبو محمد على بن حزم الأندلسى) .
جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال .

الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى) .
جذوة المقتبس ، نشر محمد بن تاويت الطنجى .

الخشنى (أبو عبد الله محمد بن حارث الخشنى) .
كتاب القضاة بقرطبة ، نشر خليان ربيرا ، مدريد ١٩١٤ .

شكيب ارسلان .
الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، القاهرة سنة ١٩٣٦ .

صاعد (القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى) .
طبقات الأمم ـ طب السعادة بالقاهرة .

ابن طفيل (أبو بكر محمد بن عبد الملك) .

حى بن يقظان تحقيق أحمد أمين .

عبد العزيز الأهوانى .

الزجل فى الأندلس ، القاهرة ١٩٥٧ .

ابن عبد المنعم الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى) .

صفة جزيرة الأندلس منتخب من كتاب الروض المعطار نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

ابن عذارى المراكشى .

البيان المغرب فى أخبار المغرب ـ بيروت ١٩٥٠ .

ابن غالب (محمد بن أيوب بن غالب) .

نص أندلسى جديد ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الاندلس .

تحقيق لطفى عبد البديع القاهرة ١٩٦٥ .

مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد) ٠

كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٠ ط ٠ ليدن ـ القاهرة ١٣٠٢ هـ ٠

ياقوت (أبو عبد الله ياقوت بن الله الرومى الحموى) ٠

معجم الأدباء ـ نشر أحمد فريد الرفاعى ٠

المراجـــع الأوربية .

Al-Andalus, Revista de las escuelas de estudios arabes de Ma rad Y Granada.

Americo Castro, Espana en su historia, Cristianos Y judios. Buenos Auenos Aires, 1948.

A. Conzalez Palencia, Moros Y Cristianos en Espana Medieval Madrid 1945.

C. Sanchez-Albornoz, Espana Y el Islam.

E. Levi-Provencal, La civilisacion arabe en Espagne, Paris 1948.

L'Espange musulmane au xeme

Siecle, Institutions et vie sociale. Paris 1952.

F. Fernadez Y Gonzalez, Estado social Y Politieo de les mudejares de Castilla, 1866.

F. Javier Simonet, Gistoria de los mozarabes de Espana, Madrid 19 3.

M. Menendez Pelayo, Origenes de la novela, Modrid.

Pascual Boronat Y Barrachina, Los Moriscos Espanoles Y su expulsion, Valencia 1901.

Menedez Pidal ; Antologia de Cuentos, Madrid 19 3.

La Espana del Cid, Madrid 1947.

المكتبة التاريخية

ظهر منها :

١ ـ المجمل فى تاريخ الأندلس :

للمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى

٢ ـ الاسلام فى اسبانيا :

للدكتور لطفى عبد البديع

٣ ـ التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر :

للأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال

يظهر قريبا :

١ ـ تطور المسألة المصرية :

للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

٢ ـ دراسات فى التاريخ البطلمى :

للأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى

٣ ـ أصول السياسة الانجليزية فى السودان :

للدكتور جلال يحيى

٤ ـ الاسماعيلية : تاريخها وعقائدها :

للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين

٥ ـ تاريخ السلاجقة :

للدكتور عبد النعيم حسنين

٦ ـ المغول فى التاريخ :

للدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد

٧ ـ تاريخ امبراطورية الروم تأليف شارل ديل

ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

٨ ـ موجز تاريخ الاشتراكية : تأليف نورمان ماكنزى

ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وزميله

٩ ـ داود باشا آخر المماليك :

للأستاذ عبد العزيز سليمان نوار

١٠ ـ عمان وشرق أفريقية فى عهد البورسعيد :

للأستاذ جمال زكريا قاسم

١١ ـ مصر كما صورها هيرودوت :

تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد بدوى والدكتور صقر خفاجة

١٢ ـ غرب أفريقية بين العروبة والاستعمار :

للأستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل

١٣ ـ الجبرتى وعصره :
للأستاذ عبد القادر طليمات

١٤ ـ مدخل للحضارة الاسلامية :
للدكتور محمد العلائى

١٥ ـ ثورة افريقية :
للدكتور محمد أنيس

١٦ ـ القاهرة والحياة الاجتماعية فيها فى عصر الأتراك العثمانيين :
للأستاذ حسن عبد الوهاب

١٧ ـ قناة السويس :
للدكتور عبد العزيز الشناوى

١٨ ـ الاقطاع فى أوربا : تأليف جيزنهوف
ترجمة الدكتور حسن حبشى

١٩ ـ فتح العرب فارس :
للأستاذ أحمد ابراهيم الشريف

٢٠ ـ سيف الدولة الحمدانى :
للأستاذ مصطفى الشكعة

٢١ ـ نظم الحكم عند اليونان والرومان :
للدكتور لطفى عبد الوهاب

٢٢ ـ صور من الحياة فى مصر فى عصر الرومان :
للدكتور عبد اللطيف أحمد على

